رواية

غبار 1918

مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn

فاتن المرّ

دار الآداب

غبار 1918

فاتن المر

© جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى- سنة 2019

ISBN: 978-9953-597-70-6

لايسمح بإعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الالكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الكاتب.

اسم الكتاب	غـــبـــار 1918
اسم الكاتب	فـاتـن الـمـر
الإخراج الفني	TRIGRAPHICS DESIGN & PRINTING
الناشر	دار أبعاد لبنان - بيروت - الحمرا - شارع البصرة ص.ب: 7179-113 بيروت - لبنان هاتف: 00961 -1-751541 00961-1-740495 E-mail: abaaddar@gmail.com لطلب الكتاب عبر الانترنت من خلال الموقع التالي: www.beb2beb.com

فـاتــن الـــمــر

مكتبة الحبر الإلكتروني
مكتبة العرب الحصرية

غبار 1918

دار الحصاد
الطبعة الأولى 2019

إلـــــــــى زيـــــــــــــاد

ديترويت 1972

في طفولتي، حين كنت أغضب من أهلي، كنت أحلم بالندم الذي سيشعرون به إن أنا مت، فأرتاح لموتي ولندمهم. هل يرتاح اليوم لندمي؟ وهل ما أشعر به ندم؟ تلك السنين التي هدرتها في الركض نحو أبعد نقطة عنه، الجامعة الأبعد، الوظيفة الأبعد، الأصدقاء الأكثر اختلافاً، عائلة جديدة لا تشبه في تقاليدها ونمط عيشها تلك التي أنشأها... الأعياد التي تهربت منها، وتلك التي لم أشارك فيها إلا لأجد مسوغاً لسخطي ولانكفائي، ولأخرج بعدها غاضباً على الجميع بمن فيهم نفسي. إن العلاقة الأشد تعقيداً هي علاقة الابن بوالده.

ربما لا يحق لي أن أصدر حكماً مطلقاً بهذا الشأن؛ لم أقم بأيّ بحث أو دراسة لأعمم. أصدقائي لم تربطهم يوماً علاقة وثيقة بآبائهم، ولكنهم لم يبدوا كأنهم هاربون منهم. علاقة سلبية هادئة لا اضطرابات فيها، مغلفة بإطار من المزاح غير المبالي. أما أنا... هل هو فرق الثقافة الذي أبعدنا وجعل واحدنا يبحث عن الآخر تارة، ويهرب منه تارة أخرى؟ أهي الآمال التي كبرت أكثر مما كان مقدراً لها، ثم تقلصت سنة تلو أخرى؟

مضى شهر على وفاته. بعد أسبوعين تماماً، بدأت بروك زوجتي بالإلحاح في طلب ترتيب حاجياته، تقديم ما لا أريد الاحتفاظ به إلى إحدى الجمعيات الخيرية... يعني كل شيء. لا أرى شيئاً أرغب في نقله إلى منزلي. شهر وقت قصير، ولكن هكذا هي بروك، ترتب كل شيء من من دون تأخير تسارع عند انتهاء كل موسم إلى فرز الثياب والمقتنيات ولا تحتفظ إلا بما

تحتاج إليه فعلاً، أي القليل. أما أنا فأؤجل، وتبقى الحاجيات غير الضرورية عالقة بي من سنة إلى أخرى.

حسناً. المنزل. الشجر الذي استغل الغياب، فنما بفوضى كأنه في غابة. الورود الذابلة عند المدخل. أبي. وثلاثة أيام لترتيب أشيائه. الرائحة. أمي، أبي، الأثاث العتيق.

أبدأ من غرفة مكتبه. ربما خانتني شجاعتي قبل أن أصل إلى غرفة النوم. عندها أتركها لبروك وأرجوها أن تكمل المهمة وتهب كل محتوياتها لمن تراه مناسباً.

الغبار استوطن المكان وأنا دخيل عليه وعلى أشيائه. كيف لم يتراء لي هذا المشهد وقد اعتدت استباق الأحداث في خيالي، حتى تلك التي لا يمكن أن تحصل؟ كيف لم أر نفسي عائداً إلى البيت بعد غيابهما؟

مكتبته. عدد كبير من الكتب باللغة العربية وأخرى باللغة الإنكليزية تختلط من دون أي ترتيب. وبعض التذكارات من البلدان التي زارها. أبدأ بوضعها في العلب التي جلبتها. باريس، اليونان، المكسيك، روسيا... ما من تذكار واحد من لبنان. أبحث في ذاكرتي، لم يزره مرة واحدة منذ هاجر منه... أعتقد، بل أنا متأكد، فحتى بعد أن غادرت المنزل، كانت أمي تلتزم مهمة إطلاعي على تفاصيل حياتهما، علها تنجح في توثيق الرابط الذي راح يتراخى على الرغم من جهودها. فقط كتب. كتب بالعربية لروائيين وشعراء عرب ولبنانيين، كتب بالإنكليزية عن الشؤون السياسية والاجتماعية للبنان والعالم العربي، الكتب التي ترجمها والتي بلغ عددها خمسة عشر كتاباً. أتردد قليلاً. قد آخذها وأحتفظ بها. أريها لكارولاين عندما تكبر لأوهمها أنها تنحدر من عائلة تجمعها روابط طبيعية، لأبني لها تاريخاً. ربما هذا ما حاولت أمي أن تفعله عندما تعلمت العربية وعلمتني إياها. لم أقرأ كلمة واحدة بعد موتها، منذ ثلاث سنوات. أوضب بسرعة حتى تؤلمني ذراعي. أتوقف قليلاً لأريحها. أجلس إلى مكتبه، أقلب أوراقه، ورقة عليها بعض أسطر بالإنكليزية بخط يده. عنوان كتاب: «قادم من زمن المجاعة»... يبدو أنه كتاب بدأ بترجمته. الكتاب السادس عشر. فاجأته النوبة القلبية. هل عرفت دار النشر

بموته؟ هل دفعت له مسبقاً جزءاً من أتعابه كما يحصل عادة؟ ربما عليّ أن أذكر ذلك لكاتب العدل الذي يتولى شؤون الإرث.

الكتاب على طرف الطاولة. هل هذا هو الكتاب الذي كان يمسك به حين وجدته مدبرة منزله، السيدة باولا، جالساً على كرسيه وقد فارق الحياة؟ ترتعش أصابعي حين أمسك به وأفتح الصفحة الأولى. تصفعني العبارة الأولى:

«أبي سبب كل الشقاء الذي صبغ طفولتي، ومن بعدها شبابي.»

قادم من زمن المجاعة

أبي سبب كل الشقاء الذي صبغ طفولتي ومن بعدها شبابي. حمَّلته وزر كل ما حصل لي. مبالغة سمحت لي بأن أضع اسماً على أحداث لم أكن في حينها أستطيع أن أدرك مسبباتها وأبعادها. أبي سبَب الجوع الذي نهش أحشائي، سبَب موت أمي وشقيقي وشقيقتي، هو الذي جعلني أتشرد هائماً على وجهي بين الجثث المكومة على الطرقات وأنين المرضى وعويل الجائعين...

رحل أبي يوم صادر الجنود الأتراك بقرتنا والدجاجات الثلاث المتبقية لدينا. كانوا قد جاءوا قبل أسبوع ليقطعوا شجر التوت المحيط بالمنزل لحاجتهم للحطب لتسيير قطاراتهم بعد أن انقطع الفحم الحجري. هكذا، بين ليلة وضحاها، اختفت البساتين وتغيرت ملامح القرية. كنا نعيش من الدخل الذي كانت تؤمنه لنا تربية دود القز الذي كان يتغذى من أوراق التوت الخضراء النضرة. بكاء أمي أفزعني وكذلك صمت أبي. راقب الجنود وهم يجرون البقرة ويحملون الدجاجات حتى اختفوا عند المنعطف بعد العين، ثم دخل واجماً إلى البيت وراح يتحدث إلى أمي بعصبية، وحين اعترضت بدأ بالصراخ وأمرها أن تعدّ له صرة من الثياب. كنا ما زلنا في البداية، بداية الحرب، بداية الضائقة وبداية التضييق، بداية العوز.

أذكره جيداً أو ربما أذكر ذكرياتي عنه. تلك الذكريات التي عارضت أحاديث أمي في ليالي الشتاء الباردة حين كانت تسعى لإلهائنا عن طلب الطعام ببعض الأقاصيص التي حفظتها عن أمها وبتلاوة الوعود التي أغدق بها أبي يوم رحيله: سيرسل لنا بعض المال ما أن يجد عملاً في أميركا، ونركب

السفينة ونذهب إليه، ونعيش في تلك البلاد الساحرة حيث لا يوجد عثمانيون ولا جوع، بلاد الأبنية الشاهقة والأشجار الوارفة والبحيرات التي لا تجف. وتؤخذ أمي بأحلامها وتسحبنا وراءها فنتمشى معها في شوارع نظيفة، بيوتها الجميلة مسيجة بأنواع غريبة من الورود التي تتنافس في ما بينها، زاهية بألوانها وعطورها، ونستقل الترامواي والقطار..

«سترتادون هناك أرقى المدارس، ومن بعدها الجامعات. ومن يدري؟ قد نعود ذات يوم إلى البلاد وقد حصلتم على شهادات عالية في الطب والمحاماة فنسكن في منزل جميل في بيروت، ونأتي إلى القرية من وقت إلى آخر...»

وننسى تقلصات الجوع في معدتنا الخاوية ونبحر مع أمي على متن سفن تسيّرها حكاياتها السحرية.

كنت أذكر جيداً كيف قبّلنا والدي بسرعة وبفتور، وكيف رحل بعد أن حمل صرة ملابسه من دون أن ينبس بكلمة. ولكنّ البريق في عينيّ أخي عيد وأختي وردة كان يمنعني من الإطاحة بقصور الأوهام التي كانت تبنيها لنا، وكان صمتي يزيد من حنقي، فيتحول قسم منه باتجاه والدتي التي كانت تبدو مصدقة تلك الوعود. كنت في العاشرة من عمري وكان عيد في الثامنة ووردة في الخامسة. إذا كان الغضب قد وسم علاقتي بوالدي، فإن الشعور بالذنب تجاه أمي قد أرقني لسنين طويلة.

أمي أحد أسباب قرار كتابة مذكراتي اليوم. أدين لها بالركوع عند قدميها النحيلتين وطلب المغفرة لبعض خطاياي الطفولية الصغيرة التي أصبحت ذنوباً تلاحقني من دون هوادة بعد أن أدركت أنني لن أراها ثانية. وها أنا أكتب.

أنا ما أنا عليه، أدين لتعب السنين بقناعة بليدة خدرت الأحلام الغبية والطموحات الساذجة. وأنا شاعر صغير، لم يقرأ دواويني إلا قلة قليلة ممن دعوتهم إلى حفلات التوقيع، واشتروا الكتاب فكانوا إما متأففين من ثمنه ومن الوقت الذي أضاعوه في الاستماع إلى كلمات المشاركين في الندوة،

أو متباهين بانتمائهم إلى طبقة المثقفين التي ما زالت تحمل بريقاً ما في مدينتنا الصغيرة.

مضى وقت كنت فيه أؤمن بفعل الكلمات أكثر من إيماني بسحرها... مضى وقت كنت فيه مؤمناً، ربما ما زلت. وإلا فما السبب الذي دعاني إلى الشروع في الكتابة اليوم، بعد توقف طويل؟ ربما لأنني لم أعد أملك إلا الكتابة. هي وسيلة من وسائل تمرير الوقت بانتظار النهاية، مثل الإسراف في الأكل أو الشرب أو الإدمان على المسلسلات الرديئة في التلفاز. ليست إيماناً. الفكرة نفسها ليست جديدة، وتكاد تصبح مبتذلة، الانتقام بزج الشخص المقصود بين الشخصيات الأخرى والسيطرة عليه بوساطة الرواية، أو الاعتراف بما أخفي لسنوات بوساطة حبكتها.

سأحاول ألا أرهقكم، إذ يكفي أنكم تكبدتم عناء شراء كتاب بطباعة عادية على ورق رخيص من دون صورة للغلاف وبدأتم بتصفحه. كل ما أتمناه هو أن تصلوا إلى نهايته قبل أن تتعبوا. كل ما أتمناه هو أن يقرأ قصتي الشخص المقصود وأن يعرف.

إنها قصتي، أنا فيها الراوي والشخصية الرئيسية، ولكنني، مع ذلك، غير قادر على التحكم بها بشكل تام. لا أستطيع أن أبدأها من حيث أريد، من ولادتي، أو من الطفولة الهانئة التي أمضيتها في منزلنا في قرية الخنشارة المتنية الجميلة... ذاكرتي لا تطال تلك الأيام، ليس بسبب التقدم في السن؛ هي لم تطلها يوماً، كأنني ولدت في العاشرة من عمري، في زمن المجاعة. إنها قصتي ولكنها أيضاً قصة الأولاد الآخرين الناجين من لعنة الحرب والمجاعة الذين جمعهم منزل ماري العجمي، وقصة أبناء الحياة الذين آمنوا بمعجزات من صنعهم. يجمعهم اليوم كتابي وقد تفرقوا في أصقاع الأرض.

فلنعد إلى البداية، إلى زمن المجاعة التي تسللت إلى حياتنا بخفة جعلتنا ننسى سريعاً زمن الشبع والشعور بالاكتفاء الذي يبعد الطعام عن تفكيرنا خلال النهار خارج الأوقات المحددة له، كأننا لم نعرف يوماً ذلك الزمن السابق.

أدركت أن الربيع قد غادرنا يوم كفّت أمي عن الخروج إلى الحديقة، بل راحت تشيح بنظرها حين تمر قرب النافذة أو الباب حتى لا ترى ما أصبحت عليه أشجارها وورودها. قبلها كان الجراد حدثاً مثيراً للاهتمام، تغييراً مسلياً في حياة صبية القرية. كنا نتسابق إلى قتل تلك الحشرات وطمرها كما علّمنا عمي أنيس، ونشعر أننا فرسان هبوا لإنقاذ القرية من الأشرار، ونردد: «يا سمرمر قوم قوم، الجراد تلّا الكروم»، منادين طائر السمرمر الذي قيل لنا إنه يلتهم الجراد بأعداد كبيرة. نسير مع أهل القرية في صفوف طويلة حاملين أغصان الشجر نضرب بها الحشرات، أو نقرع بالعصي الصغيرة على الأوعية النحاسية لنصدر ضجيجاً يبعدها، كما قيل لنا، ونضحك. ثم فهمنا، بعد الشرح الذي قدمه لنا العم أنيس، أننا غير قادرين على القضاء عليها، إذ كانت كل أنثى تضع بين الثمانين والمئة بيضة، فتعود إلى التكاثر بشكل مرعب، وأن الأغصان التي عراها الجراد من أوراقها لن تحمل فواكه في تلك السنة وأننا لن نحرم فقط من أكل الكرز، بل من التفاح والعنب والتين والعناب.عندها راحت الحشرات التي بقيت تعمل من دون هوادة على سرقة غذائنا تبدو عدواً هائلاً يهددنا.

بقي الجراد تسعة أشهر في سمائنا، على أغصان الأشجار التي أكل حتى قشورها، في البستان والبيت، في الكوابيس التي كانت تشتد رعباً مع اشتداد القلق الذي كنا نراه في عيون أهلنا. كانت أسرابه، حين تحجب ضوء الشمس، تسدل الظلام في قلوبنا. حاول عمي أنيس أن يقنع والدتي أن بإمكاننا أكله، وأن الكثيرين من أهل الساحل كانوا يفعلون ذلك، حتى أنه، قام بالتجربة أمامها، بعد أن قام بشوي جرادة كبيرة، لكنها أشاحت بوجهها عنه ومنعتنا منعاً باتاً من أن نحذو حذوه. يومها لم نكن نعرف شيئاً اسمه المجاعة، فقد كنا ما زلنا في بداية مرحلة الفقر. فيما بعد، أكلنا ما هو أسوأ... رحل الجراد بعد أن قضى على كل ورقة، كل غصن أخضر، كل عشبة، وتحولت القرية والحقول المحيطة بها إلى صحراء سوداء قاحلة، كأن حريقاً هائلاً قد غيّر معالمها، صحراء ستزيد من قيظ الصيف بعد أن لسعتنا برودة الشتاء الماضي. حتى الفصول باتت تضمر لنا عدائية مهددة.

قلت للعم أنيس: «لماذا لا نشتري الفاكهة من عمران البائع المتجول؟»

ابتسم ولم يجبني فزاد ارتباكي. ما لم أكن أدركه آنذاك هو أن قدرتنا الشرائية كانت تتضاءل يوماً بعد يوم بسبب الغلاء الفاحش، بينما تتقلص مدخراتنا. ما الذي حل بالعم أنيس وبالصبية من أولاد الحي الذين كانوا يشاركونني أيامي المقسمة بين اللعب والدراسة في مدرسة المعلم سليمان؟ كأنهم اليوم ينتمون إلى عالم آخر، عالم من واقع ثان، إلى رواية قرأتها، أو فيلم شاهدته. الزمن لا يكتفي بالعبور، بل يحمل معه أمكنة وأشخاصاً ويجرفها كالسيل تاركاً على الضفاف البقايا المبعثرة.

عندما تملّك منا الجوع ماتت العلاقات. لم نعد نزور الأهل والأصدقاء، ولم يعد أحد يدخل بيتنا. في البداية، كنت أرافق أمي في زياراتها، فأجلس بين النساء المتحلقات في الدار حول همومهن كما حول مأدبة يتناوبن في تناول تفاصيلها، يتحدثن كثيراً عن أشياء غامضة ومخيفة، عن حرب اسمها العالمية وعن جمال باشا السفاح والجنود العثمانيين وسفر برلك والمحكمة العرفية في عاليه... ثم يضحكن فيبدو لي أن كل ما تكلمن عليه مجرد قصص كتلك التي كان يرويها أبو أديب في سهراتنا، قصص ليس لها تأثير خطير في يومياتنا، ويتمازحن فينجلي ما بقي لدي من مخاوف. وحين يحين موعد المغادرة، تنادي صاحبة المنزل أمي وتصطحبها إلى المطبخ وتقول لها:

«شلت شوية كعك للولاد.»

لم أفهم لماذا كانت هذه العبارة التي كانت تبعث السرور في نفسي تطبع حزناً كبيراً في عيني أمي. كانت وجنتاها تكتسيان بالحمرة وكانت تتمتم:

«في من خيرك كتير. ابن عمي ما تركنا عايزين شي.»

فيصيبني الهلع من أن تصدق الجارة كذبتها ويختفي الكعك. ولكن الجارة كانت تضع الكيس بين ذراعي أمي غير آبهة باعتراضها، وأطير إلى

البيت وأنا أجر وردة بيدها وأنادي عيد الذي كان يلعب بالتراب خلف المنزل لنفتتح مأدبة الكعك أو المربى بأسرع وقت. ثم راحت الهدايا تتضاءل حتى انقطعت، وانقطعت معها الزيارات. بقينا نزور من وقت إلى آخر منزل عمتي مريم فقط، وهي قريبتنا الوحيدة في القرية. أمي كانت من قرية أبلح من البقاع، قدمت لتمضية الصيف عند خالتها في القرية، فأعجب بها والدي وتزوجها في نهاية ذلك الصيف. خالتها ماتت وهاجر كل أبنائها إلى مكان ما في أميركا، ولم يبق لنا ولأمي، بعد رحيل أبي إلا عمتي مريم وأنيس، ابن عم والدي وصديقه. ثم لم يبق لنا غير أنيس بعد أن أفهمنا زوج عمتي أننا بتنا نشكل عبئاً عليه، وأن عائلته أحق بكسرات الخبز اليابسة التي كانت عمتي تجود بها علينا حين كنا نزورها. ما لم أفهمه إلى اليوم هو وجود بعض الورود الملونة في حديقة عمتي آنذاك... نظرت إليها ونحن نغادر وتساءلت إن كان للأغنياء طريقة سرية في طرد الجراد لم يطلعوا أحداً عليها. لم تحزن أمي كثيراً لما حصل، إذ كان الجوع الذي بدأ ينتشر قد أخذ يغلق الأبواب كلها في وجه الأهل والأصدقاء، وكانت غريزة البقاء تتجلى في أنانية شرسة لا تأبه بتاريخ العلاقات بين أبناء العائلة الواحدة والحي الواحد.

البرد أيضاً كان عدواً، فمنذ أن قطع الأتراك الأشجار وصادروا مخزون الحطب، أصبحت مجابهته أمراً عسيراً. كان علينا أن نقصد أماكن بعيدة في الوادي أو في الجبل لنحصل على بعض الأغصان اليابسة نحملها مسافات طويلة ولا تكاد تدفئنا يوماً واحداً. أشعلنا كل ما كان لدينا من الأثاث الجميل الذي كان والدي يحضره من المدينة. كنا نعلم أن ما يحدث لنا كانت له أسباب خارجة عن إرادة أهلنا، لكن ذلك لم يمنعنا من التذمر أمام أمي العاجزة طوال الوقت: «أمي، أريد أن آكل. جدي لي شيئاً آكله. أمي أنا لا أستطيع النوم من البرد...» وأمي تروي لنا الحكايات الجميلة، فننسى لبعض الوقت. ذات مساء، أحسست أن حكاياتها قد نفدت، وطال صمتها إزاء شكوانا، ثم نهضت وضمّتنا إلى صدرها وطمأنتنا قائلة:

«لا تخافوا. سأذهب إلى الدير لأرسل مع أحد الرهبان رسالة إلى أخي جريس الكاهن، وهو لن يتأخر في القدوم لمساعدتنا، أو على الأقل، في

إرسال مساعدة لنا.»

كدت أن أصرح لها بمخاوفي. ماذا لو لم يستقبلوها في الدير إن علموا أنها انقطعت عن زيارة الكنيسة للصلاة، حتى في أيام الأعياد؟ ماذا لو قرر الكاهن الذي يقيم في الدير أن يوبخها على تقصيرها؟ ولكنني تراجعت. لماذا أزيد من همومها؟ في كل الأحوال، لم يعد الكثيرون من أهل القرية يرتادون الكنيسة، ربما لكي لا يظهر الواحد منهم معاناته أمام الآخرين، أو ربما بسبب التعب والمرض. أما أنا، فكنت أواظب على زيارة الكنيسة لأتناول قطعة صغيرة من القربان، أتركها في فمي حتى تذوب ثم أبتلعها بتمهل، ولكي أراقب السنديانة التي نمت في حائط الكنيسة، ثم شقت طريقها عابرة القرميد، منطلقة إلى السماء، منفصلة عن الأرض. كنت متيقناً أن الجراد لن يقوى عليها، لكنني لقيتها ذات صباح وقد عرّاها من أوراقها ومن قشور أغصانها، فلم أعد أذهب إلى الكنيسة، خصوصاً وقد استبدل الكاهن بقطع القربان كسراتٍ من الخبز اليابس أصغر من تلك التي كانت العصافير تحملها بمنقارها... قبل المجاعة.

أمضت أمي يوماً كاملاً في كتابة تلك الرسالة. كان أبي قد علمها القراءة والكتابة، ولكنها لم تحتج قبل رحيله لاستثمار ذلك العلم إلا في قراءة الإنجيل وبعض الصلوات. كتبت بصعوبة، وأعادت الكتابة مراراً وتكراراً. وعندما أتمتها، عرضتها على العم أنيس الذي أجرى عليها بعض التصحيحات قبل أن يأذن بوضعها في مغلف عتيق وجده في قعر أحد أدراج خزانته. وقال لها:

«سأبقى مع الأولاد حتى تعودي.»

كيف نجا العم أنيس من موجة الأنانية التي ضربت الجميع وبقي يحيطنا بعطفه ويتقاسم معنا ما تيسر له من الطعام؟ نجا من الأنانية، ولكنه لم ينج من بطش الأتراك الذين اقتادوه إلى سجن عاليه ذات ليلة وانقطعت بعدها أخباره، وانقطع آخر خيط يربطني وأمي وإخوتي بالآخرين.

كان قدوتي، وكنت أقلده في كل ما كان يفعله، وأرافقه إلى كل مكان، حتى إلى الساحة حيث كان يجلس لوقت كان يبدو لي طويلاً جداً مع أصدقائه يتكلمون في السياسة وأحاول جاهداً أن ألتقط بعض الأفكار، ولكنني سرعان ما أشعر بالملل، فأجلس على الارض لألعب بالحصى. أذكر جيداً ذلك اليوم حين قدمت دورية من الجنود الأتراك وأعطت الأوامر لرجال القرية أن يرافقوها للعمل على حفر الخنادق في التلال المواجهة للبحر لكي يحتمي فيها الجنود عند تعرضهم للهجوم، واعدة إياهم برطل من الطحين بدلاً عن أتعاب كل يوم عمل. يومها رجوت عمي أن يسمح لي بمرافقتهم.

«ألم تقل لي إني أصبحت رجلاً؟»

«بكل تأكيد، ولكن عليك أن تبقى هنا لتحمي أمك ووردة وعيد. لا يمكن أن نتركهم وحدهم.»

فغمرني شعور بالمسؤولية ممزوج بالاعتزاز، وعدت إلى البيت وأخبرت أمي أن عمي ذهب مع الجنود الأتراك ليجلب لنا كيساً من الطحين، وأنني سأتكفل بحمايتهم، ولكنها لم تبد مسرورة أبداً، ولا فخورة. بعد يومين، عادت الدورية، وراح أفرادها يدورون في الشوارع ويدخلون البيوت باحثين عن الرجال.

«ولكنهم ذهبوا معكم ليحفروا الخنادق!» قال لهم حميد العجوز.

«هؤلاء الجبناء قد لاذوا بالفرار كالفئران.»

علمت فيما بعد أن الرجال الذين أدركوا انهم لن يتقاضوا أي أجر عن عملهم، هربوا واختبأوا في المغاور التي تحيط بالقرية، ثم عادوا بعد نحو أسبوع.

ولكن فلنعد إلى تلك الليلة التي عادت فيها أمي من الدير مرهقة، حزينة، بعد أن أخبرها أحد الرهبان هناك أن آخر ما يعرفه عن خالي هو أنه مقيم، منذ بضعة أشهر في دمشق، وأن ايصال الرسالة إليه سيتطلب وقتاً طويلاً وسيكون الأمر عسيراً في ظل الأوضاع القائمة: جنود فارون من

العسكر في كل مكان ودوريات وقطاع طرق... فالسفر بات يشكل خطراً كبيراً وراح الناس يجتنبونه قدر المستطاع. «سأحاول، ولكنني لا أستطيع أن أعدك أنني سأنجح. نحن لا ندري ما الذي سنفعله في المستقبل القريب، فالأتراك أمرونا أن نغادر الدير. يريدون أن يجعلوه ثكنة لجنودهم. والرئيس لم يقرر بعد إلى أين سنرحل.»

رأيت أمي تكتم خوفها وتبتسم ابتسامة ضعيفة.

«لم يبق لي إلا البيت. سأذهب منذ الغد إلى خليل بك لأرهنه.»

أذكر جيداً كم حاول عمي أنيس ثنيها عن عزمها، مصوراً نتائج أصابتني بالهلع مثل التشرد على الطرقات من دون مأوى... هل كان يعلم؟ ولكن أمي أشارت إلى وردة التي كانت قد أصبحت هزيلة جداً وقالت:

«هل أقف وأتفرج عليها وهي تذوي أمام ناظريّ؟ نرهن اليوم وغداً يحلها حلال. هؤلاء الأولاد بحاجة للطعام اليوم.»

ولكنها، في اليوم التالي،عادت بخطى متعثرة، وبوجه شاحب وعينين زائغتين. لم تقل إلا عبارة واحدة رداً على أسئلة العم أنيس القلقة:

«أبو يوحنا رهن المنزل لديه قبل أن يرحل. أخذ منه مئتي ليرة.»

يومها، لم يعد المنزل يبدو لي صلباً. صار كبيت من الورق، مهدداً بالانهيار تحت وطأة الفقر. بيت العم أنيس الملاصق لبيتنا بدا لي مزعزعاً أيضاً حين رأيت العم أنيس واقفاً على سلم الخشب يعمل على نزع القرميدات عن السطح. ناديته لأسأله عما يفعله، فأجاب من دون أن يلتفت إليّ أنه سيحمل القرميد في الغد إلى المدينة ليبيعه ويشتري بثمنه طحيناً. حين عاد في اليوم التالي حاملاً كيس الطحين على ظهره، ظننت أن هذا الكيس الهائل سيبعد عنا طيف الجوع إلى الأبد. لكن الكيس لم يكن كبيراً إلا بمقدار ما رأته عيناي اليافعتان والأبد الذي ظننت أننا سنكون بمأمن فيه من الجوع لم يدم إلا أسابيع قليلة. هو أيضاً قام برهن بيته بعد ذلك، ولكن الثمن الذي تقاضاه لم يدم طويلاً.

قبل أن ندخل في متاهة المجاعة، حين كنا لا نزال في مرحلة العوز، في بداية الحرب، كان والدي يذهب برفقة العم أنيس سيراً على الأقدام إلى مدينة زحلة ليشتريا لنا الطحين، يحمل كل منهما كيساً على ظهره، ويعودان مرهقين وقد تورمت رجلاهما من المشي وابيضت ثيابهما وشعرهما من غبار الطريق. ولكنهما كانا يتمازحان، يعيّر الواحد منهما الآخر بالضعف وبالتخاذل، يتذكران بعض الحوادث التي وقعت، والشعور بالخوف من الدوريات والنجاة في اللحظة الأخيرة، ويضحكان ضحكة مشوبة بشيء من التوتر. مراهقان مرهقان وفرحان بالنجاة وبإنجاز المهمة. انقضت تلك الأيام بسرعة وغصنا في رمال المجاعة المتحركة.

بدأت بعدها مرحلة بقيت في ذاكرتي مغلفة بالضباب. فيما بعد ستحاول الآنسة ماري انتزاع الذكريات من هذا الضباب لقناعتها بضرورة إلقاء نظرة شجاعة على الماضي للتمكن من بناء مستقبل ما على أنقاضه. حاولت جاهداً، بصدق وإيمان بما كانت تقول، ولكنني لم أفلح إلا في استخراج مشاهد متقطعة، بعضها غير مفهوم، و بعضها الآخرالمفهوم مؤلم حتى الموت.

سأبدأ بالأصعب، بما بدأت بالكتابة في سبيله، بسبب بقائي ورحيلهم: بكيس الزبيب...

كنت ذات صباح أتمشى على طرقات القرية التي كانت قد بدأت تخلو من الناس، مقلاعي في يدي، أطلق منه الحصى على أغصان الأشجار العارية، حين سمعت صوتاً يناديني. تلفتّ باحثاً عن مصدره، فلم أفلح في إيجاده. كان نداء يحاول أن يصلني دون الآخرين. تكرر النداء. بحثت ثانية، فإذا برأس عمتي مريم يطل من إحدى نوافذ بيتها الجميلة المطلية باللون الأزرق. اقتربت بحذر. كانت لي تجارب مرة مع مطاردة زوجها لي بالحجارة حين كنت أقترب من منزلهم سائلاً عمتي بعض الطعام. كانت أمي قد انقطعت عن زيارتها قبل سنة تقريباً، وحين سألتها عن السبب قالت هذه الجملة المقتضبة: «زوجها بلا ضمير.» لوقت طويل ظننت أن الضمير هو

عضو من أعضاء الجسد، حتى بعد أن فهمت معناه بشكل تقريبي. ألم نكن نقول عن شخص إنه بلا قلب، وآخر بلا دماغ؟

«هيا، تعال بسرعة. إسبر ليس هنا!»

سألتني عن أمي وشقيقيّ. قلت:

«أمي متعبة ووردة مريضة جداً تكاد لا تقوى على الحراك.»

طلبت مني أن أنتظرها، واختفت لدقائق قصيرة، ثم عادت. أعطتني رغيفين من الخبز وكيساً من الزبيب وأوصتني بعدم إخبار أحد أنها فعلت، وسألتني عدم العودة لطلب المزيد إلا إن هي نادتني. ستكون هذه الهدية الأخيرة. بعدها سيوظف زوجها ناطوراً لحراسة المنزل، ناطوراً كانت لديه تعليمات محددة في ما يخصني، إذ كان يكشر عن أنيابه حين يراني مقبلاً على الطريق، ويشير إليّ أن أرحل. لم يكن يسمح لي حتى بالتفتيش في القمامة أمام منزله عن بعض قشور الخضار والفاكهة. مرة صرخ بي مهدداً، وقال عبارة لم أفهمها: «روح قول لأنيس المهربجي يطعميك.»

فيما بعد سيخبرني أحد سكان قريتي كيف حولت الحرب إسبر، زوج عمتي، إلى واحد من أكبر أغنياء المنطقة وكيف كان رصيده عابراً للعهود، من العثمانيين إلى الفرنسيين، حتى بعد الاستقلال حين أثمرت أمواله وعلاقاته مقعداً نيابياً لا يخلخله أي ذكر لتاريخ ثروته. سيفتتح مؤسسات خيرية ويقص الكثير من الأشرطة وسيلقون فيه الخطب والاشعار وسيتعلم فن الإغواء بالكلام الذي يبدو ممتلئاً بالأفكار الجديدة والبناءة، وسيقدم اليسير وتتنامى ثروته كل يوم أكثر، سينشئ حوله زمرة من الزواحف، ويوطد علاقات محلية ودولية تقيه التقلبات، «سينشئ سلالة سياسية، تضمن مكانتها ومقاعدها من جيل إلى جيل، عائلة سياسية عريقة، كما يسمونها عندنا»؟.

في زمن المجاعة، وبعد أن منعت السلطات العثمانية استيراد القمح إلى لبنان، ثم عادت ونظمت هذا الاستيراد على طريقتها، تمكن إسبر من التعاقد مع شركة القمح اللبنانية التي كانت تشتري القمح من حوران، وقام،

كغيره من التجار، بالاتفاق مع بعض رجالات السلطة الحاكمة، ببيع جزء صغير من القمح الذي تسلمه إلى أهل المنطقة بالسعر المتفق عليه، وباع ما تبقى إلى التجار بأسعار باهظة مكنته من جمع أموال طائلة. كما حذا حذو باقي التجار ومزج الدقيق بالتراب وبمواد أخرى منها الزوان والكرسنة التي تبين فيما بعد أنها تسبب موتاً بطيئاً. كان الخبز الذي ينتج عن هذا الدقيق المغشوش أسود اللون يعلك كالصمغ ويسبب دواراً. ولكن سرعان ما اختفى هذا الخبز من منازلنا واصبح مجرد ذكرى جميلة. كان إسبر ينقل القمح من مكتب القمح والإعاشة في بلدة المعلقة في البقاع ويخزنها في مزرعة اشتراها على أطراف القرية وحولها إلى مستودع ضخم حيث كان يطحنه ليحوله دقيقاً، ثم يجري عليه التحويل الضروري والإضافات المطلوبة لتزيد أرباحه وأرباح المتعاونين معه من أركان السلطتين الحاكمة والعسكرية من العثمانيين.

حين اسمع أحداً اليوم يتكلم على الضمير أتذكر أنني كنت أظنه عضواً من أعضاء الجسد، وأبتسم في سري: الضمير ليس سوى كرة من الطين، يضغط عليها حاملها ويتلاعب بشكلها ليناسب راحته المادية والنفسية. أجزم أن إسبر لم يشعر يوماً بما يسمونه عذاب الضمير وأنه راض عن أفعاله، واثق من نفسه، يسمي ما ارتكبه حنكة، ويصف الآخرين بالغباء.

يوم أعطتني عمتي هديتها المشؤومة، طرت إلى البيت فرحاً، ولكنني، على بعد خطوات من المنزل، توقفت، وتذكرت مشاجراتي مع أمي التي كانت تخبئ ما يصلنا من طعام في مكان أجهله، وتعطينا القليل منه كل يوم، ما لا يكفي لسد رمقي. سارعت إلى إخفاء الكيس تحت بعض الأغصان اليابسة في الحديقة ولم أعط أمي سوى الرغيفين. في الأسابيع التالية، حين ساءت حالنا، وبدأ الجوع يتحول مرضاً يشل قوانا، كنت أتوجه إلى مخبئي وأتناول بعض حبات من الزبيب فيبتعد عني شبح الموت. الكيس فرغ يوم ماتت وردة. ماتت وهي نائمة. أمي لم تقو على العويل فبكتها بهدوء وتعب. هل أدركت يومها فظاعة ما قمت به؟ لا أعتقد. كنا نعيش بمشاعر مخدرة

وأفكار لا تكاد تتجاوز الغريزة الحيوانية. كنا هياكل بشرية تنتظر الموت وتحاول أن تحتال عليه قليلاً.

كانت أغصان الورد الجوري اليابسة تسكن أحلامي. أذكرها جيداً اليوم، لأن حلماً كان يزورني ليلة بعد أخرى حتى بدا لي أنه مرادف للنوم وأن الجميع يرون الحلم نفسه. الضباب يلف الحديقة حيث مائدة من الأطايب بين الورود الزاهية. أمد يدي لأتناول منها شيئاً، فتتساقط وريقات الورود وتتلوى الأغصان العارية مانعة إياي من الوصول إلى الطعام وتجرح يدي الممدودة بأشواكها. لم أستطع، إلى اليوم، أن أتخلص من كوابيسي. في أحلامي، أبقى دائماً مغلوباً على أمري، مرتبكاً، ضعيفاً... أحسد من يخبرني عن حلم خرج منه منتصراً، أو على الأقل تمكن فيه من حل أزمة ما والوصول سالماً إلى ضفة اليقظة.

لا أريد أن أظلم نفسي كما جاء في اعترافات الكاتب الفرنسي جان جاك روسو الذي جعل من سرقة صغيرة اقترفها في شبابه محوراً لذنوبه. إخفاء كيس الزبيب عن عائلتي تم في حقبة لم يكن الجوع قد تمكن فيها منا، فالعم أنيس كان لا يزال قادراً على تأمين بعض الطحين، وأحياناً القليل من الشعير، بالإضافة إلى «السليقة»، أي بعض الحشائش التي تؤكل، والتي كان يذهب إلى الوادي ليقطفها، ومن وقت لآخر، لحم طير كان يصطاده. قرأت فيما بعد أن الناس، في أثناء المجاعة، أكلت كلاباً وقططاً وأحياناً جرذاناً. هل نالنا نحن أيضاً نصيب من تلك الحيوانات من دون أن يخبرونا عن طبيعة ما تناولناه؟

كان الجميع يرحلون، منهم إلى «بلاد الله الواسعة» أي ما كنت أفهمه على أنه أميركا، ومنهم «إلى ملكوت السماوات»، كما كان يقول أبونا مخايل، فيبدو الأمر غاية في الروعة، بينما أرى الناس من حولي في حزن شديد على رحيلهم. ومنهم من كان يشد الرحال نحو البقاع الذي لم تغزه المجاعة بالقدر الذي فعلته بنا، بسبب أراضيه الزراعية الواسعة.

هذا ما قامت به زينة الجميلة التي كنت مغرماً بها مع أنها كانت تكبرني بعدة سنوات. كنت أجلس لأنتظرها قرب العين، فيخفق قلبي بقوة

حين أراها آتية، وأسارع إلى غسل وجهي ويديّ بماء العين مما علق من تراب من جراء اللعب وأمسح الغبار عن حذائي. تحييني فأرد همساً وأمعن النظر في جديلتها الشقراء التي كانت تسقط من فوق كتفها حين تنحني لتملأ جرتها ماء، فتبتسم لي وتسألني عن صحة أمي ويغمرني فرح غامض ممزوج بالخجل. كانت أحياناً تجلس على حافة العين لترتاح قليلاً، وتقطف ورقة من نبتة العطر التي كانت تنمو قرب الحائط وتشمها طويلاً ثم تنهض وتغادر. كانت زينة يتيمة الأبوين، تعيش في بيت عمها برفقة شقيقها الصغير. حين قرر عمها أخذ عائلته إلى البقاع، حملت زينة شقيقها على ظهرها وسارت وراءهم إلى بلدة أبلح.

رحل العم أنيس قبل أن تموت وردة بأيام قليلة. حملها إلى الطبيب الذي أعطاها دواء ورفض أن يتقاضى أجره من المال القليل المتبقي لنا. كان حزيناً وأسرّ للعم أنيس أن الأتراك أصدروا أوامرهم إلى كل الأطباء للالتحاق بالجيش العثماني ليعالجوا المرضى والجرحى من الجنود، وقد قرر أن يهرب في تلك الليلة تحت جنح الظلام، ليصل إلى البحر ويهاجر...

في صباح اليوم التالي، سمعت جلبة وصراخاً آتيين من منزل العم أنيس، فركضت إلى هناك. توقفت عند الباب، فرأيت الجنود العثمانيين يعيثون خراباً في الأثاث، يحطمون الطاولة والكراسي ويمزقون الفرش والوسادات. كانوا أربعة، يخربون ويكيلون شتائم بالتركية كنت أعرفها، إذ كانت قد أصبحت متداولة بيننا. كانت محتويات مكتبته الثمينة مبعثرة على الأرض... تراجعت إلى النافذة واسترقت النظر بحذر. كانوا يفتشون عن شيء ما، وكان العم أنيس مكبلاً في إحدى الزوايا والدم يغطي وجهه. أردت أن أناديه، فتحت فمي، حركت شفتيّ، ولم يخرج أي صوت. أردته أن يراني، ولكنه كان ينظر أمامه ولا يلتفت إلى ما كان يجري حوله. شدتني أمي إلى الخلف ودفعتني إلى المنزل، حيث رحنا نراقب من خلف النافذة.

حين خرج الجنود من المنزل وهم يدفعون العم أنيس أمامهم، قالت أمي جملة غامضة:

«طالما حذرته وقلت له إننا أضعف من أن نقف في وجه العثمانيين.»

بدت حانقة عليه أكثر من حنقها على الجنود العثمانيين. كانت يداها ترتجفان ووجهها انسحبت منه الدماء، فأصبح يشبه وجه جدتي حين ماتت. كانت، في الأشهر الأخيرة، تتحول كل يوم أكثر إلى امرأة عجوز: ظهرت التجاعيد على وجهها، ورحت أرى خصلاً بيضاء وسط شعرها الأسود الذي كان جميلاً جداً فيما قبل، طويلاً وناعماً حين تفك الجديلة لتمشطه، كوشاح الحرير الذي كانت تضعه على رأسها حين تذهب إلى الكنيسة. بعدها، في المراحل الأخيرة من المجاعة، راح شعرها يتساقط وتظهر في رأسها مساحات من الجلد فارغة.

يومها لم أكن أعرف أنني لن أرى العم أنيس ثانية. يومها ترددت على مسمعي عبارة «المحكمة العرفية في عاليه»، وفهمت أنها سجن ضخم فيه حراس أشرار يعذبون السجناء وقضاة لا يسمعون دفاع المتهمين عن أنفسهم، ولا يهمهم إلا تنفيذ أوامر جمال باشا السفاح وإرضاء رغباته.

ملأ عمي أنيس لبعض الوقت الفراغ الذي خلفه رحيل والدي، ثم غادر هو أيضاً. كنت أرافقه في «رحلات الصيد»، كما كان يسميها، فننزل سوية إلى الوادي لنبحث عن بعض الأعشاب البرية التي عادت تنمو بخفر منذ رحيل الجراد، ونعود بها إلى أمي لتطهو بعضها ونأكل البعض الآخر نيئاً مع القليل من الخبز. كنا نجلس لنرتاح قرب نبع عين الجوزة في فيء صخرة فضية وكان يحدثني عما يحصل لنا، وكنت أجهد نفسي لأفهم. ولم أكن أفهم الكثير. الحصار البحري، جمال باشا، مصادرة الحبوب والماشية، عبارات حفظتها ولم أفهمها إلا بعد انقضاء وقت طويل، بفضل كتب التاريخ وبعض المخطوطات التي قرأتها بشغف. عندها أدركت أننا لم نكن إلا جزءاً ضئيلاً من الكارثة التي حلت بأهلنا، وأن أمي ووردة وعيد ليسوا إلا رقماً صغيراً جداً من أعداد ضحايا المجاعة التي نالت من ثلث سكان البلاد. كان خرير مياه النبع العذبة يرافق أحاديثنا ويثير بي رغبة الاستسلام للنوم. أعشق ذلك النبع الصغير المجتهد الذي بقي يرسل ماءه على الرغم من القحط المحيط به،

بقي هناك بلسماً لجراحي إلى أن خارت قواي وعجزت عن زيارته، إلى أن تهاوت أفكاري وعجزت عن تذكره.

كان هناك أمر يثير غضب عمي أنيس بشكل خاص وهو قانون النفوس الجديد، وكان يقول عنه إنه سيؤسس لكوارث مستقبلية لن تنجو البلاد من تأثيراتها لسنين طويلة. فيما بعد، قرأت عن هذا القانون الذي صدر في شهر آب من العام 1914، والذي نص على ذكر الدين والمذهب في السجل وورق الهوية...

هكذا يرحل المحتل مطمئناً وقد وضع أسس التفرقة التي تسمح له، عند انعدام إمكانية الاحتلال التام، بالمحافظة على سلطة ما على فئة ما من الشعب المقسم.

كان عمي أنيس حاضراً دائماً في حياتنا، ولكن الذكريات التي أحتفظ بها عنه هي تلك التي تعاصر بداية المجاعة. أذكر أنه كان يساعد والدي في دفن ما استطاعا الحصول عليه من البطاطا في البستان تحت التراب حتى لا يجده الجنود العثمانيون حين يأتون ليفتشوا أرجاء البيت بحثاً عن طعام يصادرونه بصفته «مجهوداً حربياً» لجنودهم. كما بنى معه حائطاً داخل المنزل وقد أخفيا بين الحائطين مؤونتنا من العدس والحمص والقمح. هكذا تحايلنا على بطش الأتراك وعلى الجوع بضعة أشهر فقط.

بعد مضي أسبوع على رحيل عمي، وبينما كنا في إحدى السهرات جالسين في الغرفة حول وردة التي كانت ترتجف من البرد والمرض، نهضت أمي وتوجهت نحو الباب بخطى واثقة، واختفت لبضعة دقائق، ثم عادت وهي تحمل في يدها صندوقاً مليئاً بالكتب، رمتها وسط الموقد وأضرمت النار فيها. تمددت ألسنة اللهب من صفحة إلى أخرى مثل وحش ضار يصر على التهام حروفنا منذ أن قرر التاريخ أن يقيدنا، ضحايا عند قدميّ غاز يليه آخر.

«كتب عمي أنيس!» صرخت، وحاولت أن أطفئ النار... فما كان من أمي إلا أن دفعتني بعيداً بقوة لم يخيل إلي أنها كانت تملكها، وصاحت: «وما نفع الكتب إن متنا برداً وجوعاً؟ أختك مريضة.» ثم صمتت قليلاً وأضافت:

«وأنيس لن يعود.» عيناها الجامدتان بثتا في نفسي شعوراً بالغربة. كان قد مضى زمن طويل على المرة الأخيرة التي ضمتني فيها إلى صدرها وقبلتني بلهفة. كل تلك الكتب، كل العبارات التي كنت أراه يدونها فيها ضاعت إلى الأبد في تلك الليلة وفي الليالي التي تلتها من دون أن تنجح في إنقاذ وردة.

بعد موت وردة أخذ جرس الكنيسة يقرع كل يوم معلناً موت أحد سكان القرية، وأحياناً كان يقرع مرتين أو ثلاث مرات في اليوم. فيما بعد، أخبرتني الآنسة ماري أنها، حين كانت تزور بيروت، لم تكن تتمكن من النوم لأنها كانت تسمع طوال الليل أصواتاً تصرخ: «جوعان، جوعان...»، في قريتي، كان الناس يجوعون ثم يمرضون ويموتون بصمت. وحده جرس الكنيسة كان يعلن أن حياة انتهت.

ديترويت 1972

يكاد يحل المساء وأنا لم أوضب شيئاً من مقتنيات المنزل. أغلق الكتاب وأنهض لأغادر. ربما لن آخذ إلا هذا الكتاب. ربما لن أعود إلى هنا ثانية. لا أحب هذا البيت. لم أحبه يوماً. لم يكن أبي يهتم كثيراً بترميمه وبطلاء الأبواب والسياج. كل ما كان يشغله، عند العودة من عمله أو في الصباح الباكر، كان الاهتمام بالشتول التي زرعها في الحديقة الخلفية. شتول البندورة والخيار والخس كانت تحتل كل المساحة التي كانت مخصصة في حدائق أصدقائي للأراجيح والألعاب المتنوعة، وربما لبركة سباحة صغيرة.

في السيارة، أعود بذاكرتي إلى الاستاذ يوسف، المدرس في المدرسة التي سجلتني فيها أمي، والتي كنت أرتادها يوم السبت لتعلم اللغة العربية. كان الأستاذ يوسف متعلقاً برواية تحمل عنوان «الرغيف» لكاتب يدعى توفيق يوسف عواد، وكان يجعلنا نقرأ مقاطع منها مراراً وتكراراً حتى كدنا نحفظها عن ظهر قلب. قرأنا معه روايات أخرى، بعد أن أتقنّا اللغة العربية، ولكنني أتذكر «الرغيف» أكثر من أية رواية أخرى. أبسبب المعاناة الفظيعة التي عاشها الصبي طام؟ أم أنني ربطت ما كنت أقرأه بعبارة كانت أمي ترددها أمامي حين كنت أشكو إليها بخل أبي ورفضه القاطع دفع أي مصاريف كان يراها غير ضرورية، أو غضبه إن رآنا نرمي بقايا الطعام وفتات الخبز. كانت تقول:

«هذا بسبب ما عاناه في شبابه. والدك عاش مجاعة ضربت بلده وقضت على ما يقارب ثلث سكان المنطقة التي قدم منها. لا ينجو المرء من مأساة كهذه من دون أن تحمل نفسه بعض الآثار. علينا أن نفهم ما مر به.»

وكانت تسارع إلى التعويض عما منعني عنه من المال الذي كانت تجنيه من عملها.

تعرفت إلى المجاعة في «الرغيف» مع طام الذي تشرد بعد هروب شقيقته من العثمانيين وجنون والدته. أذكر منه مشاهد أعدت قراءتها مراراً مثل مشهد طام وهو يرسل حبلاً يخنق به دجاجات البك ليسرقها ومن ثم يأكلها، أو المشهد حيث يقف أمام واجهة المخبز يراقب أرغفة الخبز المصفوفة ويصفها وصف العاشق لمحبوبته، وطام في السجن، وطام يقف حائلاً بين جمهور المتفرجين وأمه التي كانت ترفع ثوبها أمامهم، طام النائم الذي يوشك أن يحمله العمال المولجون بدفن جثث الموتى من ضحايا الجوع...

حجزت غرفة في الفندق. لا يمكن أن أمضي الليلة في المنزل الذي تفوح منه رائحة الذكريات والموت. وحدها أمي كانت تمنح منزل العائلة معنى.

بقيت، حتى يوم رحيلها، تحاول أن ترمم العلاقة التي تفسخت بيني وبين والدي. بقيت تحبه على ما أظن، وهو أيضاً كان يحبها، كما كانت تقول، «على طريقته». ما هي طريقته؟ لم أره يوماً يضمها بين ذراعيه أو يقبلها قبل أن يغادر المنزل. «لا تجري الأمور هكذا في بلاده.» كانت تسوغ له كل ما يفعله، أو ما لا يفعله. لم يعلمني لعب الكرة. «لا يجيد اللعب.» لم يحضر مباراة واحدة لي. «هو شديد الانشغال.» لم يقدم لي هدية بمناسبة عيد مولدي أو عيد الميلاد أو أية مناسبة أخرى. «لا يفعلون ذلك هناك من حيث أتى.» هناك من حيث أتى صحراء قاحلة لا يحتفل سكانها بأية مناسبة ولا يفرحون ولا يعبرون عن مكنونات صدورهم. أما مشاعري تجاه أمي فكانت مختلطة ما بين الحب والغضب. ولكي لا يكون عليّ أن أعمل بشكل دائم على تفكيك شبكة المشاعر العائلية المعقدة، اخترت الابتعاد ما إن تسنى لي ذلك.

عندما أصل إلى الفندق، أسارع للاتصال ببروك. صوتها يعيدني إلى الحاضر الذي اخترت. لا تطرح الأسئلة، بل تؤكد شوقها لرؤيتي وتتحدث عن

مشروع «باربيكيو» مع بعض الأصدقاء يوم الأحد القادم، كما تفعل دائماً كلما أدركت أنني كئيب. أرسل لكارولاين قبلات ما قبل النوم وأعدها بالعودة سريعاً. أستلقي على السرير وأفتح كتاب «قادم من زمن المجاعة»، أستغرب لهفتي لمتابعة القراءة.

قادم من زمن المجاعة

«أذكر جيداً كيف أصيبت أمي بالهلع حين رأت قملاً في رأس عيد وكيف راحت تصرخ بصوت مخيف: «ألم أقل لك ألا تعود للّعب مع أولاد جارنا صموئيل؟ والدهم دائم السفر، والأوبئة متفشية بشكل خطير في الأماكن التي يقصدها. منذ أن اخبرتني زوجته بذلك توقفت عن زيارتهم...» طلبت من عبدو الحلاق أن يحلق شعرنا بشكل كامل. فبدأ بشعر عيد، وحين رأيت منظر رأسه بعد أن أتم الحلاق مهمته، رحت أصرخ رافضاً أن أتعرض للاعتداء نفسه، ولكن أمي أمسكت بي بذراعيها وثبتتني واضعة رأسي في متناول الحلاق، فأذعنت وأنا أذرف نهراً من الدموع، مفكراً بسخرية الصبيان الآخرين حين سيرون ما حل بي. أما وردة، فلم تبك، وبقيت جميلة حتى عندما قص الحلاق جديلتيها السوداوين اللامعتين. ما أذكره عن شقيقتي التي ستبقى صغيرة إلى الأبد في ذاكرتي، هو أنها كانت دائمة الابتسام والضحك. لم أرها تبكي كثيراً، حتى بعد أن أصيبت بالمرض، كانت تعبر عن ألمها بأنين خافت يؤلمنا أكثر من أي صراخ. اليوم أدرك أن وردة أصيبت بالتيفوس الذي كان منتشراً بشكل كبير في ذلك الوقت والذي غالباً ما كان ينتقل بوساطة القمل. ربما كان عيد هو من تسبب في مرضها. ربما كان ذلك خيراً لها، إذ كانت أول الراحلين... أو ربما كانت ستعيش، مثلي أنا.

وردة الصغيرة دفنت في مدفن العائلة ونقشوا اسمها على الحجر الخارجي. أما أمي وعيد، فلا أعرف إن كانا قد دفنا هناك في وقت كثر فيه انشغال المولجين بدفن الموتى، فلم يعد لديهم متسع من الوقت لينقشوا الأسماء على القبور، أم أنهما ماتا على الطريق، فحملاهما ودفناهما في

إحدى الحفر مع عشرات الجثث الأخرى. لا أذكر الكثير عن نهايتهما. كنا نمشي، وسقطت أمي، ومن بعدها بوقت قصير عيد. هل كنا عائدين من إحدى رحلاتنا إلى بلدة برمانا حيث كنا نصطف أمام منزل السيدة مريم قرطاس، المدرّسة التي أقامت في منزلها مطعماً للنساء والأطفال الجياع، بانتظار وجبة طعام؟ أو كنا نرافق أمي لإيصال الثياب التي قامت بخياطتها لتتقاضى ثمنها نصف رغيف؟ لعل مشهد الجثث المستلقية على جنبات الطريق في رحلة الذهاب والإياب جعلني أرى سقوط أمي وشقيقي شأناً عادياً، أو لعلني لم أكن مدركاً لما كان يجري من حولي.غريزة ما حفزتني على متابعة السير للوصول إلى منزلنا. هناك جلست على المصطبة بعقل وقلب خاليين من الأفكار والأحاسيس، أنظر أمامي ولا أرى شيئاً. هكذا وصف لي الخوري مخايل مظهري عندما مر بالمنزل: «كنت على عتبة الموت.» سألته فيما بعد عن أمي وعيد. هو أيضاً لم يكن يعلم، كان يقوم بجولات حول قرى المنطقة، يساعد بعض المرضى ويصلي على من يجدهم يحتضرون أو من قد فارقوا الحياة. حين وجدني، كان قد غاب عن القرية أسبوعاً كاملاً. بعدها انشغل في إيصالي إلى المأوى. هل مات عيد وأمي من الجوع أم من جراء أحد الأمراض التي تفشت في أرجاء البلاد؟ هل سقطا قرب القرية أم في مكان بعيد عنها؟ لو سقطا بعيداً عن القرية، هل كنت سأعرف كيف أعود وحدي إلى المنزل؟ أطرح اليوم هذه الاسئلة فقط لضرورات الكتابة، وقد أجبرت نفسي على أن أكتمها سنيناً طويلة كي أتمكن من أن أتابع حياتي، أو أن أتظاهر بمتابعة حياتي...

استيقظت من شبه الغيبوبة التي كنت غارقاً فيها فوجدتني في عالم غريب أصابني بالهلع. أسرّة عديدة في قاعة لا متناهية، وأصوات وكلمات غريبة تساقطت فوق رأسي كمئات من الحجارة الصغيرة. أين أنا؟ هل هذا هو الجحيم الذي كان يحدثنا عنه الخوري مخايل في درس الدين؟ هل هناك جحيم مختص بالأطفال فقط؟ كل الذين حولي أطفال يتكلمون بصوت مرتفع ويتراشقون بأوراق على شكل صواريخ وبالوسادات... ثم دخلت سيدة صاحت قائلة شيئاً لم أفهمه فساد الصمت. سارت بين الأسرّة حيث جلس الأطفال المشاغبون يراقبونها، توقفت قرب سريري ووضعت يدها على

جبيني كما كانت أمي تفعل حين أكون مريضاً، وهمست كلاماً لم أفقه منه شيئاً. «أين أمي؟» سألت. لم تجبني، بل أدارت ظهرها وغادرت القاعة بعد أن توجهت إلى الأولاد بكلمات غير مفهومة. أين أمي؟ أهي في الجنة بينما أقبع في الجحيم؟ ووردة وعيد؟

رفعت الغطاء فوق رأسي وحاولت أن أنام، فلم أفلح بسبب ضربات قلبي السريعة وبسبب الضجيج الذي عاد إلى القاعة. كنت مسكوناً بالخوف وبهاجس ملاقاة أمي ووردة وعيد، وكان كل جزء من جسدي يرتعش ثم، شيئاً فشيئاً، بدأت الأصوات تهدأ من حولي، حتى خبتت تماماً، فاسترقت النظر لأرى أن العتمة قد حلت على القاعة، وأن الأولاد راحوا يغطون في النوم. جلست على السرير وفكرت قليلاً في ما عليّ أن أفعله: أبتعد أولاً عن هذا المكان المخيف. نهضت من الفراش ومشيت بحذر نحو الباب. حاولت فتحه ولكنه كان موصداً. لم أجرؤ على المحاولة ثانياً، خوفاً من الصرير الذي أصدرته محاولتي الأولى. تهاويت على الأرض قرب الباب ورحت أبكي بصمت. شعرت بيد على كتفي وهمس صوت في أذني كلاماً بدا لي رقيقاً، ولكنه يشبه ذلك الذي كان الأولاد يتراشقون به. ضوء القمر المتسرب من النافذة القريبة سمح لي برؤية ملامحه: صبي في مثل سني أو يكبرني قليلاً. أمسك بيدي ورفعني عن الأرض وقادني نحو سريري. تركني هناك واندس في السرير المجاور. ربما لم أمت. فقط أمي وعيد وقعا على الطريق وأنا... الخوري مخايل... أعتقد أنني سرعان ما غفوت في تلك الليلة الأولى.

صحوت على نفس الأصوات مجدداً. كان الأولاد يغادرون أسرّتهم، تحت إشراف السيدة التي رأيتها في الليلة الأولى. بقيت جالساً في مكاني، فأشارت إلي السيدة أن ألتحق بالأولاد الآخرين الذين كانوا يغادرون متوجهين إلى مكان ما. لم أعرف ما الذي يجب أن أفعله. جلست على الفراش ولكنني لم أتحرك، فكلمتني بنبرة قاسية جعلتني أجفل. عندها اقترب جاري مني وقال لي كلمات لم أستطع فهمها. فتكلم ثانية بكلمات مفهومة:

- ألست أرمنياً؟

- كلا.

- أنت عربي؟

- أنا سوري من الخنشارة في جبل لبنان.

- وما الذي تفعله هنا إذاً؟

- لا أعرف كيف وصلت إلى هنا. هل كل الأولاد الموجودين هنا هم أرمن؟

- في هذا القسم هم أرمن. هناك بعض الأتراك والأكراد في الأقسام الأخرى.

- وأنت؟

- أنا أرمني أيضاً، ولكنني أتكلم العربية لأن جدتي من حلب وقد علمتني لغتها.

- وما الذي تفعلونه هنا؟

- هذا ميتم.

- أهلك ماتوا بسبب الجوع؟

- هيا الآن، لقد تأخرنا، قال جاري بسرعة.

- تأخرنا على ماذا؟

- على الاغتسال وارتداء ملابسنا قبل أن نتناول الطعام. إذا تأخرنا نعاقب بحرماننا من الفطور.

وسبقني من دون أن يلتفت خلفه فلحقت به بسرعة خشية أن أضيعه. ناولتني السيدة التي رافقتنا ملابس نظيفة وأشارت إلي أن أغتسل وأرتديها. شعرت أن جاري بات يجتنب النظر من ناحيتي ويبتعد عني كلما اقتربت منه.

كنت أعرف رجلاً أرمنياً اسمه فاهيه؛ كان بائعاً متجولاً، ثم تزوج شابة من قريتنا وفتح دكاناً صغيراً يبيع فيه أدوات الخياطة. كنا ندخل إلى حديقته ونسرق بعض الفاكهة من أشجارها، فيلحق بنا ويروح يصيح بكلمات بالأرمنية ونهرب ضاحكين.

كان طعام الترويقة عبارة عن قطعة من الخبز الأسود الذي استبدلنا به خبز القمح في الحقبة الأولى من المجاعة، ولكنه ما لبث أن اختفى بعدها وصار حلماً بعيد المنال، وأربع حبات من الزيتون. لم أكن قد رأيت الزيتون منذ أشهر. التهمت كل هذا بثوان قليلة. كنت أريد أن آكل المزيد، ولكنني لم أجرؤ على التفكير بالطلب. رحت أراقب ما حولي: قاعة كبيرة فيها طاولات مستطيلة ومقاعد من الجانبين. كان الجميع يأكلون بصمت، فلم أجرؤ على توجيه واحد من الأسئلة التي كانت تضج في رأسي إلى جاري. عندما انتيهنا، استغليت الضجة التي رافقت انصرافنا من قاعة الطعام لأسأله:

- ما اسمك؟

- أمير.

- وهل جدتك هي من أطلق عليك اسماً عربياً؟

- أنت تزعجني بأسئلتك. الأفضل أن تتوقف.

- أنا اسمي يوحنا.

- لن يبقى هذا اسمك لوقت طويل.

خنقت الأسئلة الأخرى التي تهافتت إلى شفتيّ خوفا من أن أزعج أمير فيبتعد عني مجدداً. لحقت به إلى قاعة أخرى حيث جلسنا إلى طاولات صغيرة وأخذت سيدة تكتب كلمات غريبة على لوح أسود كبير، بينما ينقل الأولاد الآخرون ما تكتب على دفاترهم. لم يكن لدي ورقة أو قلم، فجلست أراقب. لا شيء مما كانت تكتبه يشبه ما كان يعلمنا إياه الأستاذ راجي في مدرسة القرية.

- هل هذه الكلمات باللغة الأرمنية؟ همست في أذن أمير.

- بالتركية، أجاب، ثم أشار إلي أن أصمت.

بعد زمن بدا لي طويلاً جداً، فتح الباب وأطلت السيدة التي رافقتنا في المهجع وفي صالة الطعام ونادت باسمي وأشارت إلي بأن أنهض وأتبعها. لا أعرف لماذا اعترتني رجفة شديدة جعلتني أتعثر عدة مرات في السير، مما أثار ضحك التلاميذ من حولي. لم أجرؤ على أن ألتفت خلفي لأرى إن كان أمير يشارك الآخرين في السخرية مني.

دخلنا إلى غرفة، فوقع نظري أولاً على سيدة تجلس خلف مكتب، وعلى أحد الكراسي كان رجل...

- بونا مخايل!

ارتميت في حضنه ورحت أبكي. ربما كانت هذه المرة الأولى التي أبكي فيها منذ أشهر.

لا أذكر على وجه التحديد ما قاله لي، ولكنني فهمت أنه سيرحل ويتركني في هذا المكان.

- لا اريد ان أبقى هنا. اريد أن أعود معك إلى القرية.

- لا أستطيع. هناك كلنا مهددون بالموت من جرّاء الجوع أو المرض. لقد وافقت السيدة الطيبة خالدة على بقائك مع طلابها. وهذه فرصة لا تقدر بثمن.

- أمي وعيد...

- لم يبق غيرك يا يوحنا. عليك أن تكون شجاعاً.

- وماذا لو عاد أبي ليبحث عنا ولم يجد أحداً؟

- لا تقلق. سأخبر الجميع في القرية أنك في ميتم عينطورة... على الأقل من بقي من أبناء القرية، فإذا عاد والدك سيعرف أين يجدك. ونهض

ليغادر. قبلت يده وأنا ما زلت أبكي. تعلقت بثوبه، ولكنه أبعدني بلطف ورحل. أذكر أن ألماً فظيعاً مزق أضلعي، أذكر أنني شعرت أنني لن أراه ثانية ولن أرى أياً من أهلي وأبناء قريتي وأنني سجين إلى الأبد في هذا المكان الكئيب... ما قالته السيدة خالدة زاد من خوفي وحزني:

- إسمع يا يوحنا، عليك أن ترد الجميل إلى الحكومة التركية التي آوتك وأطعمتك بتعلم اللغة التركية بأسرع وقت. من الآن وصاعداً سيمنع التلاميذ من التلفظ بأي كلمة أرمنية ؛ يمكنك أن تتفاهم معهم في البداية بالعربية وأرجو أن يتعلم بعضهم هذه اللغة منك.

عرفت فيما بعد أن هذه السيدة هي الأديبة التركية خالدة آديفار التي كانت مديرة الميتم المخصص لأطفال الأرمن الذي أسسه الأتراك في معهد عينطورة بعد أن طردوا منه الرهبان. هل كان الخوري مخايل على علم بسياسات التتريك التي شكل الميتم أحدى أدواتها؟ أظن أنه لم يفكر يومها إلا بإنقاذي من موت محتم. هو نفسه بدا هزيلاً ومتعباً، كأنه سيلحق بكل ضحايا المجاعة الآخرين. كيف حملني إلى الميتم وأنا على هذه الحال من الضعف؟ هل كانت لديه عربة أم وضعني على ظهر حمار أو بغل؟ انشغلت طويلاً بهذه الأسئلة البسيطة، كأن الإجابة عنها امر حيوي لا يمكنني أن أتجاهله.

في الليلة التي تلت، حلمت أنني أقترب من الخوري مخايل وهو جالس على كرسيه في مدخل بيته المحاذي للكنيسة وأستلّ سكيناً خبأته خلف ظهري وأطعنه، فتتطاير دماؤه وتغطي ثيابي البيضاء. أفقت مذعوراً، خائفاً من كل ما حولي، خائفاً من الدنيا ومني. بعدها راودتني أحلام مشابهة، كنت أدفع فيها العم أنيس وسط النار وأقف لأشاهده وهو يحترق وأنا مرتعب، أفكر بإنقاذه ولا أقوى على ذلك.

أمضيت في الميتم سنة كاملة وأنا أنتظر. أجلس في وقت الراحة قرب أول نافذة أجدها وأنتظر. في الليل أنتظر، وأحاول أن أتخيل أبي حين يصل إلى القرية ويقصد البيت فيجده فارغاً، يقصد بيوت الجيران ويسأل.

يبكي طويلاً حين يعرف أن أمي ووردة وعيد قد ماتوا، ويفرح لأنني ما زلت على قيد الحياة، ويهرع إلى عينطورة ليأخذني. وكان قلبي يقفز بين أضلعي كلما فتح الباب ودخلت منه السيدة شهناز لتنادي على أحد التلامذة، متوقعاً أن تتلفظ باسمي وأن أخرج لملاقاة أبي. لم أكترث كثيراً لقسوة السيدة شهناز وبقية المدرسات ولضربهن الموجع بمسطرة ثخينة على أصابعي، لأنني كنت أنتظر. لم يؤلمني الجوع كثيراً ولم أتضايق من الطعام الرديء والقليل، لأنه كان طعاماً، ولأنني كنت أنتظر. لم أحزن كثيراً لابتعاد باقي الأولاد عني وسخريتهم الدائمة مني، لأنني كنت أنتظر. كل الأولاد نبذوني إلا أمير الذي شعر بمسؤولية ما تجاهي، ربما لأننا نتقاسم لغة هي لغة جدته التي أحَب، فأصبح أخي وصديقي والمدافع الدائم عني. كان يكبرني بسنتين، سنتان تجعلان لصاحبهما أفضلية خارقة في العلاقات الطفولية.

انتظرت من دون أن أعرف أيا من أحداث العام 1916 وإعدام عدد من المعارضين الذي سيكون له وقع على مستقبلي، بينما كنت أدرس التاريخ العثماني المجيد وأحفظ القرآن وأتعلم الصلاة. تعلمت اللغة التركية بسرعة، بفضل غريزة البقاء بالدرجة الأولى، لأن العقاب الذي كان ينزل بنا إن لم نتكلم بالتركية كان من القسوة حيث جعلنا نخشاه بشدة فلا نقع في الخطأ، وكانت السيدة شهناز لا تجيب ولا تلتفت صوبي إذا تفوهت بطلب ما أو بسؤال بالعربية، كأنني غير مرئي. أنشدت مع الأولاد الآخرين النشيد التركي وحيينا كل صباح العلم العثماني وسعادة الحاكم جمال باشا. كنا نلعب قليلاً وندرس كثيراً ونصمت طويلاً. نصمت بشكل خاص، حين نعلم أن أحد الأولاد الذين يتلقون العلاج في المستوصف بسبب الضعف أو المرض قد توفي ونقل إلى المقبرة الصغيرة المحاذية للملعب. كان الخوف يسكننا فلا يبقى في نفوسنا مساحة لأي شعور آخر. لم يكن الأولاد في قسمنا في الميتم يختلفون ويتقاتلون كما كان يفعل أولاد الحيّ في قريتي. كانوا يتشكلون في ثنائيات أو مجموعات من ثلاثة أو أكثر، ولكنهم لم يختلفوا يوماً ولم يشك أحدهم ولداً آخر إلى المعلمات. كان حزنهم يجمعهم في جبهة موحدة في مواجهة الآخرين، جبهة صامتة، لا تقال فيها الصداقة والأخوة. أما أنا، فكان انتظاري أقوى من حزني. وحده الانتظار كان يذكرني بمن أكون،

إسمي، عائلتي، وردة، عيد، العم أنيس، بيتنا. وأنا أنتظر ووالدي لا يأتي. ربما لن يأتي أبداً، ربما لم يعد يذكرنا، ربما توقف عن حبنا يوم رهن المنزل وتقاضى ثمنه ورحل. هو هناك في تلك المدينة المسماة ديترويت، يتكلم لغتهم، يأكل ما طاب له، يعيش بحرية في بيته، يعمل في معمل فورد للسيارات... ربما اقتنى سيارة...»

ديترويت 1972

ديترويت... معمل فورد للسيارات... هل يعقل؟ ولكن هناك المئات من العمال العرب ومن اللبنانيين بشكل خاص الذين قدموا إلى هذه المدينة هرباً من الجوع واضطهاد العثمانيين على ما قالت لي والدتي. ولكن الكتاب الذي كان أمام والدي عندما انتابته النوبة القلبية... أليس هو الشخص المقصود الذي تكلم عليه الكاتب في أول الكتاب؟ ما اسم الكاتب؟ لم أنتبه حقاً. الغلاف. يوحنا بطرس. بالتأكيد! بطرس تحولت إلى بيترسن وأنا تحولت إلى جون. كان من القسوة بحيث أطلق عليّ اسم ابنه الذي تركه هناك!

هل يمكن أن أتعايش مع فكرة أنني ولدت من وحش ضارٍ وتربيت في كنفه؟ وأمي المسكينة التي أحبته وماتت ولم تعرف. كل الذكاء الذي كانت تبديه في كل الشؤون الأخرى لم يسعفها لتعرف طبيعة الرجل الذي تزوجت.

أتصل ببروك، فيوقظني صوتها المتعب من صدمتي.

- هالو حبيبي، ما الذي يحصل؟

- كنت نائمة؟

- الساعة الثانية صباحاً...

- بروك، تلك الوثائق التي أخذتها من الصندوق الذي كانت أمي تخبئها فيه هل ما زالت بحوزتك؟

- بالطبع. أريتها للمحامي فقال لي إنه لا يحتاج إليها.

- أين هي؟

- هنا، في درج المكتب.

- أيمكنك أن ترسليها إلي؟

- الآن؟

- غداً صباحاً بالبريد المضمون والسريع.

- سأفعل، ولكن جون، ما الذي يحصل؟

- أخبرك لاحقاً. تصبحين على خير.

واستدركت بسرعة قبل أن أقفل الخط:

- أحبك.

- أحبك أيضاً.

كيف يكون للحب معنى بعد اليوم؟ أمي أحبت شخصاً لم تعرفه طوال خمس وثلاثين سنة. وأنا أحببته، على الأقل عندما كنت صغيراً وكنت أطمح إلى نظرة إعجاب منه، ويوحنا أحبه وانتظره.

الغضب الذي اجتاحني كضباب كثيف ولزج حجب كل ما كان جميلاً في الماضي الذي عشته في كنف أسرتي، وقدم مسوغا لعلاقتي السيئة بأبي. هل كرهه الكاتب كما أكرهه الآن؟ هذا الكاتب أخي. إن صحت ظنوني. أما زالت مجرد ظنون؟ أأبقيها كذلك إلى حين استلامي تلك الأوراق التي سترسلها بروك والتي اكتفيت بإلقاء نظرة سريعة عليها قبل أن أسلمها لها؟ ربما لن تقدم الأوراق أي دليل إضافي. هل أنا مستعد لأن أبدأ رحلة طويلة وشاقة كما يفعل كل من شاء أن يبحث عن جذوره، أم أطوي هذه الصفحة بعد أن أطوي آخر صفحة في الكتاب؟

الكتاب... أعود إليه كغريق يتعلق بخشبة قبل أن تخنقه الأمواج.

قادم من زمن المجاعة

من بين كل الأولاد الذين كانوا يسخرون مني، كان نظام الأكثر عدائية. لم يتعب من ملاحقتي بنكاته السمجة وضحكته التي تشبه نهيق الحمار، حتى بعد مرور شهرين على وصولي. ملّ الآخرون من رفاقه ولم يعودوا يضحكون كثيراً حين يقلدني في مشيتي أو في طريقة لفظي الكلمات التركية أو في انتظاري قرب النافذة، ولكنه لم يملّ. أعتقد أن ضخامة جثته منعت أمير من أن يصده ويبعده عني. كان يقول لي: «تجاهله، لا عقل له.» لا عقل ولكن عضلات، وقد كان ذلك الأمر فريداً بين الأولاد الذين عاشوا المجاعة والعذاب والذين بقوا، في غالبيتهم، ضعيفي البنية، سريعي المرض، غير آمنين من موت يتربص بهم ليخطفهم عند أول إعياء يصيبهم. كلهم إلا أمير. من أين كانت له تلك العافية على رغم الشح في الطعام الذي كان يقدم لنا؟ اعتدت أن أبتعد، قدر المستطاع، عن مرمى نظره، ولم أجد الهدوء الذي كنت أصبو إليه في وقت الراحة إلا في المقبرة المحاذية للحديقة. تلك المقبرة كانت تخيف بقية الأولاد فيبتعدون عنها ويجتنبون النظر من ناحيتها. أما أنا، فبعد ما رأيته، في رحلاتنا إلى بيروت من جثث ملقاة على جوانب الطرقات، بتّ أرى المقبرة ملجأً يستر عري الميت ويدفئ جسده.

كنت أتكئ على صخرة صغيرة في فيء سنديانة وأترك الانتظار يلفني بأحلامه الهانئة ويمتزج ببعض الذكريات الجميلة التي نجت من ممحاة المجاعة.

ذات يوم، أيقظني من أحلامي صوت ما، حفيف الأوراق اليابسة تحت أقدام شخص قادم باتجاهي، حشرت نفسي بين الشجرة والصخرة لكي

أتوارى عن الأنظار. بعد لحظات، ظهر نظام واقترب مني، ثم تخطاني وراح يتسلق شجرة قريبة، ثم أخرج من جيبه ورقة ودسها في تجويف في أعلى الجذع. بقي جالساً على أحد الأغصان لبضعة دقائق يحدق في الفراغ، وما لبث أن نزل عن الشجرة بنفس الخفة التي ساعدته على تسلقها وعاد من حيث أتى. حين تأكدت من ابتعاده، نهضت من مخبئي وسرت وراءه مسافة تسمح لي بأن أراه يتجه نحو الملعب وينخرط في اللعب مع مجموعة رفقائه. عدت أدراجي ورحت أتسلق الشجرة التي خبأ فيها نظام ما كان يحمله. حين وصلت إلى أعلى الجذع، نظرت إلى داخل التجويف، فلم أتمكن من الرؤية، مددت يدي وأخرجت عددا من قصاصات أوراق مطوية. فتحت إحداها، فإذا بها كلمات بلغة غريبة، لا هي تركية ولا عربية... أرمنية حتماً. فكرت بحمل بعضها إلى أمير لكي يساعدني على معرفة ما تحتويه، ولكنني تراجعت، خوفاً من أن يعود نظام ويكتشف غياب تلك الأوراق.

ركضت نحو الباحة حيث كان الأولاد يلعبون واقتربت من أمير وطلبت منه أن يتبعني، بعد أن تأكدت أننا بعيدان عن نظر نظام وسمعه. في طريقنا إلى المقبرة، رويت له ما شاهدت، فإذا به يتوقف ويقول:

- ما لنا ولهذه القصة؟ فلندعه وشأنه.

- هل أنت خائف منه؟

- أنا خائف عليك. إن عرف أننا نلاحقه، سيصبح أكثر شراسة في التعامل معك.

- بل على العكس، نحن نمسك بالعصا السحرية التي ستحوله إلى حمل وديع.

لم يقنعه كلامي وبقي على إصراره على العودة إلى المدرسة، ولكنني قلت إنني سأذهب وحدي لأكتشف السر، فقام ومشى أمامي بعد أن أنذرني للمرة الأخيرة بأننا سنتعرض لمشاكل كبيرة لتدخلنا في ما لا يعنينا. تسلق الشجرة وتسلقت خلفه وجلسنا على غصنين متقابلين تتوسطهما الحفرة. تناول الورقة الأولى وقرأ:

«أمي اسمها أربيك. كانت عيناها زرقاوين.» على ورقة أخرى: «جدتي كانت تخبز كعكاً شهياً.» ثم: «الأتراك حرقوا بيتنا.»، «اسمي أرام.»، «سرنا أياماً في الصحراء.»، «كلبنا كان اسمه بيدو، كان يحرس المنزل ويلعب معنا، تركناه هناك.» «اختبأنا ستة أيام في الكنيسة.» «أخذوا الرجال وبقي الأولاد والنساء.» «خالتي اسمها هايغوش.» «عمي في أميركا اسمه بوغوس.» «كان عندنا قطيع من الغنم.» «في عيد الميلاد كنا نبني بيتاً صغيراً ليسوع.» «سرنا طويلاً في الصحراء من دون طعام ولا ماء.» «أختي سوزي أخذتها بدوية وعدت أمي أن تعتني بها كإبنتها.» «كانت مياه الفرات مليئة بالجثث وكانت أمي تغلق عيني أختي كي لا ترى.» «في عيد الفصح كنا نلون البيض ونتبارى في كسره.» «الأتراك أخذوا عقد أمي الذهبي. سلسلة طويلة وصليب مزخرف جميل.» «اسم أبي كريكور.» «قريتي اسمها اوفادجك، أحرقها الأتراك.» «أمي ماتت من المرض والتعب في الصحراء.» «كانت أمي تحمل القليل من المال أعطته للجنود العثمانيين الذين كانوا يرافقون القافلة مقابل بعض الخبز.» «عندما وقعت من التعب، أمسكت بيدي جارتنا كوهار.» «أخذونا إلى مخيم في دير الزور، بعدها جاؤوا بنا إلى لبنان.» «أمي خبأت المال في بطانة ثوبها.» «الجنود باعوا نوبار ابن عمي إلى راع كردي.» «من شرب من مياه النهر المليئة بالجثث مرض ومات.» «أخي اسمه فاهيه.» «خالتي هايغوش ذبحها جندي تركي أراد أن يأخذها معه، وعندما رفضت وقاومته، قص عنقها بسكينه.» «في حديقة بيتنا أشجار من التوت والتين.» «أمي كانت تغني أغان حزينة تشعرني برغبة في البكاء.» «عمي هاكوب كان جندياً في الجيش العثماني. أخذوه إلى مصر وانقطعت أخباره.» «شاهدت الكلاب تلتهم أجساد من ماتوا من العطش والجوع في الصحراء.» «أرادت أمي أن تقفل أبواب المنزل، ولكن جدتي طلبت منها أن تأخذنا وتذهب إلى الكنيسة وقالت إنها ستلحق بنا. لم نرها بعد ذلك.» «عندما أكبر، سأبحث عن فاهيه وسوزي.»

قرأ أمير كل الاوراق، كأنه لم يستطع أن يتوقف. بعدها، غرق في الصمت. بدا بعيداً عني. سألته:

- لماذا كتب كل هذا؟ لمن؟

- لنفسه... كي لا ينسى.

صوت أمير كان مختلفاً، لم يجعله أقرب إليّ. نزلت عن الشجرة وبقي فوق، غائباً بين الأغصان التي عرّاها الجراد من أوراقها.

لم أستطع استعمال هذا السر لإبعاد أذية نظام عني. لم أعد أشعر بالأذية أصلاً، صرت أراه ولداً ضعيفاً مثلي، عاش معاناة تشبه معاناتي. فجأة تضاءل جسده، ولم يعد يخيفني. كان لكل منا حكاية، وهو خائف من ضياع حكايته، فاختار أن يودعها في تلك القصاصات ليحميها من ذاكرة تخون مع مرور الزمن وإصرار القيمين على المعهد على منعنا من تداول الذكريات ومنع باقي الأولاد من التكلم بالأرمنية. التكلم بالأرمنية كان محرماً بشكل قاطع، وكان من يخل بالنظام ويتلفظ، في أثناء اللعب، أو الطعام بكلمات أرمنية يعاقب بالضرب بمسطرة ثخينة على أصابعه. أنا أيضاً ذقت ألم الضرب بالمسطرة لأنني تبادلت مع أمير، بينما كنا نلعب، بضع كلمات بالأرمنية تعلمتها منه. مع الوقت، خف العقاب كثيراً، إذ كان الخوف من المسطرة يمنع زلات اللسان.

كل تلك الأحداث لم تبعدني عن الانتظار. كنت أنتظر حتى عندما كنت ألعب، وأتحدث، وأتناول الطعام، وأستعد للنوم، وكان الانتظار مؤلماً كما في البداية، ربما أكثر إيلاماً، لأن الشك كان قد بدأ يتسلل إليه رغماً عني. بدأت أخاف من أن لا يأتي ابي أبداً وأن أمضي بقية عمري في هذا المعهد الكئيب. ماذا لو مات أبي هو أيضاً، ماذا لو قتله الأتراك وهو قادم ليصطحبني؟ ماذا لو نسينا وبقي هناك، في بلد الأبنية العالية والأشجار الوارفة؟ حين أحاول أن أتصوره قادماً، يحضر بلا وجه، أو أحياناً بوجه العم أنيس. ربما عليّ أن ألجأ إلى الحل الذي وجده نظام، ولكنني لن أكتب، بل سأرسم الوجوه خوفاً من أن أضيعها، وجه أبي، وجه العم أنيس ووجه أمي وعيد ووردة.

لم تكن محاولاتي الفنية ناجحة جداً، ولكنها ساعدتني على تحمل وطأة الانتظار. سألت أمير:

- ألا تخشى النسيان أنت أيضاً؟

أجاب:

- أخشاه كثيراً، لذلك أستعيد كل ليلة، قبل أن أنام، كل ما أريد أن أتذكره. أغالب النعاس حتى أسترجع أكبر قدر من الذكريات عن حياتي قبل المعهد.

- وهل لديك اسم آخر أنت أيضاً؟

- لدي. كما الجميع هنا.

ونهض مبتعداً، فشعرت بالندم على طرح السؤال. لا يحب أن يتكلم على ما عاشه قبل أن يأتي إلى المعهد.

وهو أيضاً ندم على الطريقة التي صدني بها، إذ عاد وهمس في أذني:

- اسمي آرام.

هذا كل ما سأعرفه عن قصة صديقي في أثناء وجودنا في المعهد. عندما سيخبرني قصته، فيما بعد، سيقول لي: «لن تناديني أمير بعد اليوم. اسمي آرام.» وسنقوم أنا وهو بجهد معاكس، محاولين محو الشهور الطويلة التي عشناها في المعهد من ذاكرتنا.

ذات صباح، فتح باب الصف ودخلت منه سيدة جعلت المعلمة تقفز من مكانها وتهتف: «خالدة خانم! أهلاً وسهلاً!» وتأمرنا بالوقوف احتراماً. لم أكن قد رأيتها إلا مرتين فقط، بعد اللقاء مع الخوري مخايل في مكتبها. أتت مرة إلى قاعة الطعام وتجولت بين الطاولات. يومها قدموا لنا كمية من الطعام أكبر من المعتاد. ومرة أخرى جاءت إلى غرفة الصف وألقت فينا خطبة حول جمائل الدولة العثمانية بحقنا وحول ضرورة مبادلة إحسانها بالعرفان وبالعمل لمصلحتها حين نكبر. أخبرتنا المعلمة بعد ذهابها أنها دائمة التنقل بين مختلف المياتم التي تديرها والتي أنشأها العثمانيون في القدس ودمشق وأماكن أخرى...

عندما تكلمت خالدة خانم في ذلك الصباح، كان صوتها يحمل رنة مختلفة عنه في المرات السابقة:

- جئت اليوم لأزف إليكم بشارة عظيمة: لقد منّ علينا سعادة الحاكم جمال باشا بوعد زيارة سيقوم بها لمعهدنا ليشرف بنفسه على مسارنا التربوي وليرى كم أحرزتم من التقدم في دراستكم وفي ممارستكم واجباتكم الدينية. سوف يرى أن معهدنا هو صرح تربوي مثالي يخرِّج مواطنين صالحين يدينون بالولاء للدولة العثمانية.

صفقت المعلمة، فصفقنا. نظرت حولي لأرى إن كان الآخرون يشعرون بما أشعر به من رعب، فلم أفلح في قراءة التعابير التي كنت أبحث عنها على وجوههم. هل يتصنعون عدم المبالاة أم أنهم حقاً غير خائفين؟ ألم يسمعوا مثلي قصصاً مخيفة حول بطش «السفاح»؟ ألم تهددهم أمهاتهم به كما كن يهددن فيما مضى بالغول الأولاد الذين يتشيطنون؟ أضافت السيدة خالدة بعض عبارات لم أسمعها جيداً حول الترتيبات والتحضيرات «لليوم المجيد». كان في عينيها بريق جعلها أكثر جمالاً. لم أنس وجهها في ذلك اليوم، كما في يوم الزيارة حيث كان يتوهج فرحاً. فيما بعد ستخبرني الآنسة فريدة أن خالدة خانم كانت تكنّ لجمال باشا «مشاعر خاصة» وأنه لم يكن يعيرها أي اهتمام. أما أمير، فلم يلاحظ شيئاً من كل هذا، وأبدى استغرابه حين أخبرته عن خوفي وعما كنت قد سمعته عن بطش السفاح. هناك، في قريته، كان عندهم شخصيات أخرى مخيفة، وهنا، في الميتم، نعيش محاصرين بالأسوار العالية التي يحرسها عدد من الجنود الأتراك وبالمعلومات التي تختار إدارة المدرسة أن تقدمها لنا.

لم أنم في تلك الليلة. لأول مرة، منذ قدومي، تسلل شعور آخر إلى قلبي غير الحزن والانتظار. ماذا لو عرف جمال باشا أنني العربي الوحيد هنا فقرر معاقبتي؟ ماذا لو سألني عن اسمي وأدرك أنني قريب العم أنيس الذي كان يكرههم ويقوم بأعمال لا تعجبهم فاقتادوه إلى سجن عاليه؟ في الأيام التالية، أنساني الخوف حذري، مما تسبب لي بأكثر من عقاب بالمسطرة الثخينة، إذ انزلقت كلمات أرمنية وعربية في حديثي مع أمير

وسمعتني المعلمة التي كانت لها أذنان خارقتان تلتقطان كل همسة. هذا العقاب أعطاني فكرة، فقلت لنفسي إنني إذا كررت الإخلال بالنظام، قد أعاقب بمنعي من حضور الاحتفال بزيارة جمال باشا. ولكنني لم أنجح إلا في اجتذاب المسطرة على يدي اللتين تورمتا من دون أن يخطر العقاب الآخر في بال المعلمة ذات الذهن الغليظ. لم يكن أحد غيري مسكوناً بتلك الهواجس، إذ كان الآخرون يفكرون كيف سيتمكنون من رؤية الفتيات الموجودات في قسم آخر من المعهد واللواتي سيحضرن معنا الاحتفال. آرام لم يفهم خشيتي، وكلمني بشيء من الضيق: «كيف تريده أن يلاحظ وجودك؟ هل تعتقد أنه يكترث لولد صغير مثلك، أم أنه يعرف قصة عمك؟ بالنسبة إليه قريتك غير مرئية، والمنطقة كلها ليست إلا نقطة على الخريطة التي يفرشها أمامه حين يخطط.» كانت لكلامه تلك اللهجة التي طالما أزعجتني، لهجة الأستاذ الذي يضطر لتقديم الشرح لتلميذ غليظ الذهن. سكتُّ كما في كل مرة، ولكنني لم أقتنع.

مر الأسبوعان اللذان فصلانا عن اليوم الذي كنت أخشاه ببطء شديد، وكانت الوحدة أشد وطأة عليّ من قبل. لم أنم كثيراً في الليالي الأخيرة، وعندما كنت أغفو، كان نومي مسكوناً بالكوابيس التي لا أتذكرها جيداً عندما أستيقظ مرتعباً. في يوم الزيارة لعنت أكثر من أي مرة قامتي القصيرة التي طالما تسببت لي بسخرية الأولاد الآخرين والتي كانت، في ذلك اليوم المشؤوم، السبب في جعلي أقف في أول الصف. نجحت في تخطي خوفي من المعلمة وطلبت منها أن تنقلني إلى الخلف، ولكنها اكتفت بالنظر إليّ بمزيج من الاستغراب والغضب وأمرتني أن لا أتحرك من مكاني.

وصل جمال باشا وعزفت فرقة موسيقية لحناً لاستقباله أثار الرعشة في كل أنحاء جسدي، ومشى من أمامنا ووقف على الدرج بمواجهة الملعب حيث وقفنا صفوفاً طويلة. اجتمع لأول مرة منذ قدومي، الأرمن والأكراد في المكان نفسه، إذ كان المسؤولون عن المعهد قد فصلوهم إثر نشوب معارك ضارية بين الأولاد الأرمن وبين الآخرين. بدأ الجميع بغناء ما أمضينا أسابيع نتدرب عليه من الأناشيد، ولكنني لم أقو على إخراج صوت واحد من صدري،

فاكتفيت بتحريك شفتيّ، متمنياً أن لا تدرك ذلك «ذات الأذنين الكبيرتين». لم أنزع نظري عن جمال باشا بلحيته السوداء الكثة وبذلته التي تشبه بذلات الجنود الذين كانوا يأتون لمصادرة الطعام والذين اعتقلوا العم أنيس، ولكنها كانت مزدانة بالأوسمة من جهة وبسلاسل ذهبية من الأخرى، وكانت أكمامها مطرزة بخيوط ذهبية. كانت السيدة خالدة تقرب فمها من أذنه وتكلمه مشيرة إلينا، وهو يومئ برأسه ويستعرضنا بنظراته الثاقبة. انتهت الأناشيد وحل الصمت لبضع ثوان قبل أن يرتفع صوت جمال باشا بكلام لم أفقه منه شيئاً إذ كان الرعب قد تملك مني ولم يبق لي إلا التضرع إلى العذراء أن تحميني في هذه اللحظات العصيبة، متمنياً أن تكون ما زالت هناك في السماء، تسمعنا بعد كل ما حدث. بعد أن أنهى جمال باشا خطابه، وقف مع المعلمات والمعلمين وأشخاص آخرين لم أرهم من قبل، ليأخذ لهم المصور صوراً تذكارية. بدا لي أن المحنة قد قاربت على الانتهاء، ولكن السيدة خالدة تقدمت من ناحيتنا فجأة وتوجهت إلي بالكلام طالبة مني أن أرافقها. لم أقو على الحراك. كررت الطلب، فدفعتني المعلمة دفعاً إلى الأمام وأمسكت خالدة خانم بيدي لتقودني إلى الدرج حيث أوقفتني إلى جانب جمال باشا الذي وضع يده على كتفي ووقف منتظراً أن يأخذ لنا المصور صورة. عندما أطلقوا سراحي وسمحوا لي بالانصراف، وجدت أنني قد بللت ثيابي، فاختبأت وراء الشجيرات في زاوية الملعب، حتى رحل الجميع، وقفلت بعدها عائداً إلى قاعة النوم لأبدلها سراً وأدسها تحت فراشي بانتظار يوم الخميس حين يسمح لنا بالاستحمام وتبديل الملابس.

تلك الصورة التي جعلتني أعيش أكثر اللحظات رعباً في حياتي، كانت السبب في إنقاذي بعد عدة أسابيع. ولكنها، في المستقبل المباشر، أبعدت عني رفقائي الجدد إذ جعلتني أبدو ذا حظوة لدى الأتراك، حتى أمير الذي أخذ يبدي بعض البرودة في التعامل معي، ولكنه، بعد بضعة أيام نسي الحادثة وعاد إلى سابق عهده.

لم يشرح لنا أحد يومها سبب اختياري من بين جميع تلامذة المعهد ليأخذوا لي صورة مع جمال باشا. لم أفهم السبب إلا بعد سنين طويلة، حين

بدأت بالقراءة عن تلك الحقبة، فعرفت أن الباشا أدرك أن تلك الصورة يمكن أن تشكل أداة لمواجهة اتهامات التجويع والتسبب بموت سكان لبنان، والجبل بشكل خاص. فها هو يستقبل في معهده يتيماً من سكان هذا الجبل ويرعاه ويهتم بتعليمه. فيما بعد، سأكتشف أن الصورة هي كل ما يهم الكبار، لا يحفلون بما وراء الابتسامات، لا يقرأون في عمق النظرات، لا يتساءلون عن حياة الشخصيات قبل الصورة وبعدها. والجمهور يؤخذ بسحر الصورة ويصفق، طويلاً، حتى تسقط يداه من الإعياء.

رحت أستعيد في ذاكرتي حوادث أخرى بدت لي غريبة في حينها، ولكنني لم أتوقف لأفكر في أسبابها لأن أموراً كثيرة في ما عشته كانت غير مفهومة بالنسبة إليّ: من وقت إلى آخر، كانت الآنسة شهناز تدخل إلى غرفة الصف، أو إلى غرفة الطعام وتنادي باسمي وتطلب مني أن أتبعها. في المرة الأولى، أحسست برعشة السعادة تحيي قلبي. إنه زائر، أبي، عاد أخيراً. بقي الشعور نفسه يسرع من نبضات قلبي في المرات التالية، وربما كانت الخيبة التي تصيبني بعد كل لقاء هي التي تمنعني من التساؤل عن لغز تلك الزيارات. كانت الآنسة شهناز تقودني إلى مكتب السيدة تركن الناظرة، وقبل أن تدخلني، تأمرني أن أجيب عن الأسئلة الموجهة إليّ باللغة العربية. كان هناك زائر غريب، مختلف في كل مرة، وكانت المديرة تسألني عن أحوالي، عن اجتهادي في الدروس، عن الطعام، فأرد بأجوبة لقنتني إياها الآنسة شهناز، فتبتسم المديرة ويربت الزائر على كتفي وأعود أدراجي.

انقضت حمى زيارة جمال باشا وعدنا إلى يومياتنا الموزعة بين الدرس والصلاة والقليل من اللعب ومحاولة التهرب من قسوة القيمين علينا. وكان المرض والموت قابعين فوق قلوبنا الصغيرة، إذ لم يكن يمضي أسبوع من دون أن نودع رفيقاً لنا يمرض ويبقى في المستوصف لأيام قليلة، بعدها ينقلونه إلى المقبرة الصغيرة عند زاوية الملعب حيث يدفنونه من دون أي إشارة إلى هويته ومكان وجوده.

نظام أيضاً لحق بركب الراحلين. فاجأ الجميع بمرضه، وقد كان يتألق صحة ونشاطاً. تركنا مغادراً إلى المستوصف حيث لم يسمح لأحد بزيارته،

بعدها أخبرتنا المعلمة أنه مات. يومها شعر الجميع أنهم مهددون. خفت أن يتأخر أبي في المجيء وأن ألحق بمن دفنوهم هناك، ويأتي بعدها ولا يجد لي أي أثر. تأخر والدي ولم يأت إلى اليوم.

عوضاً عنه جاء منقذ لم أكن أتوقعه: خالي جريس.

عندما وصلته رسالة أمي، بعد أشهر من إرسالها، طلب الإذن من رئيس الدير وسافر إلى لبنان، متوجهاً نحو الخنشارة التي وصلها بعد الكثير من المشقة. هناك، وجد البيت فارغاً. سأل الجيران، ممن بقوا على قيد الحياة، فأخبروه عن موت أمي وشقيقي وشقيقتي، وقالوا إنني بقيت حياً وإن الخوري مخايل اصطحبني معه إلى مكان لا يعرفونه، وإن أخبارنا انقطعت منذ ذلك اليوم. لم يستطع الخوري مخايل الوفاء بوعده لي بإعلام الجيران بمكان وجودي، فهو على الأرجح قد توفي قبل أن يصل إلى القرية. عاد خالي خائباً حزيناً إلى دمشق، إلى أن شاهد ذات صباح صورتي في الصفحة الأولى من إحدى الصحف، برفقة جمال باشا، مع إسمي بالخط العريض في أسفل الصورة. كل هذا أخبرني به، ونحن في طريقنا إلى دمشق.

للوهلة الأولى، عندما شاهدته في مكتب خالدة خانم، اعتصر ألم الخيبة فؤادي، فقد كنت آمل، كما في كل مرة ينادون باسمي، ويخبرونني أن زائراً ينتظرني في مكتب المديرة، أنني سأجد والدي هناك، فأكتشف أن الزائر شخص غريب يريد أن يراني لسبب أجهله، ويعيدونني بعد الزيارة إلى سجني.

كان الزائر كاهناً بلباس أسود وشعر طويل، أخذني في حضنه وبكى. حاولت أن أتملص من عناقه، ولكنني لم أفلح، فقد كان يعتصرني بقوة كأنه يحاول خنقي. «أنا خالك جريس!» عبارته رفعت عن صدري أثقال الأشهر المنصرمة.

لم تبد خالدة خانم أي ممانعة في السماح لي بمغادرة المعهد برفقة خالي، إذ كنت قد أتممت مهمتي الإعلامية، وكان رحيلي خاتمة جيدة للصورة

الجميلة التي أرادت السلطة العثمانية تقديمها للمهتمين بمصيرنا. عدت إلى غرفة الصف برفقة السيدة خالدة التي أخبرت رفقائي أنني سأغادر المعهد وطلبت منهم أن يصفقوا لي. صفق الجميع وهم يبتسمون، ولكنني لم أتمكن من رؤية وجه أمير. عدت إلى قاعة النوم حيث ساعدتني المعلمة المسؤولة على توضيب حاجياتي. قلت لها: «أريد أن أذهب إلى الملعب لأودع أصدقائي»، فسمحت لي بذلك. اجتمعوا حولي في الملعب يسألونني عن خالي وعن وجهتي، فأجبتهم بالمعلومات القليلة التي أملكها، وأنا أبحث بنظراتي عن أمير ولا أجد له أثراً. بحثت مجدداً عنه في قاعة النوم، فلم أجده، وكانت المعلمة تحثني على الإسراع لكي لا أطيل انتظار خالي. أيعقل أن أرحل من دون أن أراه؟ ربما اختار أن يختبئ ليوفر على كلينا ألم الوداع. شعرت بالغضب من تصرفه: ما كان يجب أن يكون أجمل يوم في حياتي صبغه الحزن بسبب تصرف صديقي الطفولي. سأرحل ولن أنظر إلى الوراء. كل تلك الأفكار لم تمنعني من أن أشعر بطوق من الحزن يعتصر قلبي وأنا أخرج من بوابة المعهد الرئيسية وأودع إلى الأبد ذلك المكان الكئيب.

كان خالي قد استأجر بغلاً وضعني عليه مع الصرة التي وضعت فيها ملابسي ودفاتري والرسومات التي حاولت أن أرسمها لوجوه أهلي، ومشى وهو يمسك برسنه قائلاً إنه سيركب عليه حين يتعب من السير. وراح يسألني عما جرى لعائلتي، وأنا أجتهد لأعطيه الأجوبة الواضحة على الرغم من تشوش ذاكرتي. كان شيء من الخدر الجميل يسري في جسدي، ليصل إلى رأسي، كأن أثقال الماضي أزيحت عن كاهلي، ليحل مكانها فراغ لذيذ. الطقس جميل وأنا اتأرجح بخفة فوق ظهر البغل، وصوت خالي ينبئ بانفراجات آتية. يده التي تمسك الرسن بدت لي في منتهى القوة. لم أعد وحدي.

فجأة، عند أول منعطف، سمعنا طقطقة حصى والتفتنا إلى مصدر الصوت، فإذا بأمير يظهر من بين الشجيرات.

- أمير! بحثت عنك لأودعك...

- خرجت قبلكم واختبأت هنا حتى جئتم.

- كيف خرجت؟

- هناك ممر في آخر المقبرة لا يراقبه الجنود. رأيته منذ زمن بعيد وعرفت أنني سأحتاجه في يوم ما.

تدخل خالي سائلاً:

- ولماذا فعلت هذا؟ لماذا هربت واختبأت؟

- لأنني سأرحل معكم.

صاح خالي:

- غير ممكن! لم يسمحوا لك بالمغادرة! أتريد أن يلحق بنا الجنود؟

- وهل تعتقد أن أحداً يكترث؟ السيدة خالدة ستغادر اليوم، وبعد رحيلها، يجتمع العاملون في غرفة والأساتذة في أخرى ويحتفلون أو يرتاحون، وغداً، حين سيكتشفون غيابي، سيقررون إخفاء الأمر عنها لكي لا يبدوا بمظهر المقصرين في عملهم، وفي التعداد سيقولون إنني مرضت ومت. هكذا فعلوا عندما اختفى قاسم الشهر الماضي، وقبله أصلان وهالوك، ولم يكلف أحد نفسه عناء البحث عنهم.

- إسمع، يا صغيري، الطريق صعب، والجنود الأتراك في كل مكان، ربما كان المعهد مكاناً أكثر أماناً لك.

- أبتي، في المعهد يسعون لجعلي أنسى عائلتي ووطني وديني، وأنا لن أتحمل ذلك، بالإضافة إلى الأمراض التي تتفشى وتقتل العديد منا. مؤخراً سمعت السيدة روجدا تخبر معلمة أخرى أنهم اكتشفوا بعض حالات من البرص. إن لم تأخذني معك، سأهرب وحدي. لن أعود أبداً إلى هذا المعهد حيث لا أستطيع العيش من دون أخي يوحنا.

لم أدر أياً من الحجج التي بدا أن أمير تدرب على صياغتها مطولاً قبل مجيئنا نجحت في إقناع خالي بالسماح لأمير بمرافقتنا. بعدها، سيقول لي، إن نظراتي المتوسلة هي التي جعلته يقرر، ولكنني لست متأكداً، فقد كانت

لديه عادة توزيع الهدية الواحدة على أكبر عدد من المحيطين به ليحصد عرفانهم، أكذوبات بيضاء لم تشوه صورته الناصعة في نظري.

رحلتنا إلى دمشق استمرت أسبوعاً، تخللتها وقفات استراحة في أديرة كنا نبيت فيها لتفادي السفر ليلاً خوفاً من اللصوص ومن الجنود الأتراك. كانت المجاعة قد بدأت تنحسر بعد أن بطل واحد من أهم أسبابها، إذ سمح جمال باشا باستيراد القمح من الشام بعد أن منعه طوال ما يزيد عن الثلاث سنوات.

سرنا في البداية بمحاذاة نهر الكلب، ومررنا بقرى ودساكر مأهولة وأخرى فارغة تماماً من سكانها، وقد استوطنت الخراب فيها أسراب من الطيور وهواء يصفر بوقاحة بين الجدران المهدمة، وحين اقتربنا من الخنشارة، بعد ساعات طويلة من السير، جلسنا لنرتاح في ظل سنديانة كبيرة كانت قد بدأت تستعيد بعض عافيتها ونأكل الخبز والجبن، فسألني خالي: «هل تريدنا أن نمر بقريتكم؟ سنصلها بعد نصف ساعة. «أحاطت بي كل الأشباح التي حاولت أن أطردها من يومياتي، فكانت تعود لتحاصرني في كوابيسي الليلية. البيت الفارغ والأشجار العارية والذكريات والألم الذي لم ينضج بعد...

«كلا يا خالي. لا أريد.»

لم يسألني مرة ثانية. كان قد مر في طريق قدومه وشاهد ما لم يردني أن أراه. فيما بعد أخبرني عن مشهد البيت بعد أن مر اللصوص من هناك وأخذوا الأبواب والنوافذ وكل ما يمكن أن يحملوه، وعن القرية التي تكاد تكون فارغة. لم تتبادر إلى ذهني فكرة أن تلك الحال التي تعيشها القرية مؤقتة وأنها ستستعيد عافيتها في يوم من الأيام وتصدح فيها الحياة من جديد. يومها بدت لي موطناً نهائياً للموت. حين كنت أفكر بها، لم أكن أرى إلا صور النهاية: الغربان السوداء تحلق فوقنا استعداداً لالتهامنا، والأطفال النائمين على قارعة الطريق وهم يئنون من الجوع، وجثة امرأة وطفلها تنهشها الذئاب.

ديترويت 1972

أيقظني رنين جرس الهاتف، فتنبهت أن الضوء قد بزغ وأنني غفوت والكتاب مفتوح إلى جانبي على السرير والنور مضاء. إنها بروك.

- جون حبيبي، ما الذي يجري؟ بدوت غريباً عندما تكلمت معي في الليل.

- هل أرسلت الأوراق؟

- إنها السابعة صباحاً! أنتظر حتى يفتح مكتب البريد. هل شربت؟

- أجل، أقمت احتفالاً في بيت أهلي وثملت...

- أعتذر منك، ولكنني لا أفهم ما الذي يحصل.

- حسناً، أوصلي كارولاين إلى موقف الباص وعاودي الاتصال بي لكي نتحدث.

شعرت بالارتياح وأنا أنتظر مكالمتها. على الأقل أقول بكلمات واضحة ما يحصل لي.

أخبرتها عن الكتاب، من الغلاف، حيث الاسم، إلى المحتوى.

- ليتني كنت أجيد العربية، كنت قرأت لك ما في الأوراق، بدلاً من أن تنتظر إلى الغد لتتأكد من ظنونك.

- لا أعتقد أنها مجرد ظنون بروك. كل الوقائع تشير إلى أن أبي هو والد يوحنا الذي تركهم للجوع والموت بعد أن رهن البيت وعاش هنا مرفهاً شبعاناً، مكتفياً بفرض هيبته عليّ.

- تعرف أنني أختلف معك في شأن والدك. أنا كنت أراه شخصاً طيباً، ولكنه لم يكن يجيد التعبير عن عواطفه. كان يكنّ حباً كبيراً لكارولاين. لا تنس اننا اكتشفنا أنه ترك لها مبلغاً جيداً من المال بعد موته.

- ولمن كان سيتركه؟ لي أنا؟ كان يجد أنني كثير التبذير... حسناً، ربما كان يحب كارولاين. أو ربما كان يسعى ليعوض معها ما فعله بالفتاة الصغيرة التي تركها هناك، وردة.

- لا أعرف، طالما وجدت قسوتك في الحكم على والدك في غير مكانها.

- وها هو اليوم يورثني مشكلة جديدة. حتى بعد رحيله يقتفي أثري. كيف سأحل هذه المسألة؟ هل سيكون علي أن أبحث عن ذلك الأخ الغامض، أم أدع الأمور على ما هي عليه؟ أعتقد أنه قدم خصيصاً إلى هنا ليعطيه الكتاب.

- ربما عليك أن تذهب لزيارة الأستاذ، صديق والدك... لم أعد أتذكر اسمه.

- الأستاذ يوسف؟

- أجل كانا يخرجان إلى المقهى مرتين كل أسبوع. قالت لي أمك إنه كان أقرب أصدقائه إليه، بعد أن تقاعد من عمله في المصنع.

- الأستاذ يوسف مدرس اللغة العربية؟

- أجل. هل ترى أنك لم تكن تعرف الكثير عن والدك؟

- بالتأكيد. وها أنا اليوم أكتشف مدى جهلي.

- ما تمر به ليس سهلاً حبيبي، ولكن عوضاً عن الغرق وسط التحليل وغموض المشاعر من الأفضل أن تقوم بعمل ما، أن تتحرك...

أين تعلمت بروك أن تقدم علاجاً لكل مشكلة؟ أمن دروس طفولة قاسية في كنف أم عازبة تركها صديقها حين علم بحملها، فعانت الفقر والوحدة، حتى راحت تسرف في الشراب معيثة الخراب في حياتها وحياة ابنتها؟ انطلقت بروك إلى الحياة وحيدة، متكلة فقط على قدراتها الشخصية في مقارعة الظروف الصعبة. لديها حل لكل صعوبة، وإذا صدف أن استعصت عليها مشكلة ما لارتباطها بإرادة أخرى غير إرادتها، تغرق عندها في قنوط شديد يصعب إخراجها منه.

ولكن، كيف سأجد الأستاذ يوسف؟ من المؤكد أنه تقاعد، إذ أنه تجاوز الثمانين، او ربما التسعين. لا اعرف. كل ما أذكره هو أنه كان أكبر من والدي بعدة سنوات. ربما يعرف صاحب المقهى أين يمكن أن أجده. أستحم على عجل وأتناول ترويقتي، وأتوجه إلى الحي حيث المقهى. لم يتغير كثيراً، لا هو ولا صاحبه. حين أقف أمام واجهته الزجاجية ينتابني حنين غريب إلى أيام الشباب، حين كنا نأتي أنا ورفاقي بعد مباراة البيسبال ونطلب البيرة ويجيبنا هاري وهو يضحك أننا، حين سنبلغ السن القانونية التي تسمح لنا بتناول الكحول، سنكون قد رحلنا إلى الجامعات البعيدة.

يستقبلني بنفس الابتسامة العريضة ويقدم لي فنجاناً من قهوته اللذيذة. سألته عن الأستاذ يوسف. كان يصر على أن يتلفظ الجميع باسمه على الطريقة العربية، يوسف وليس دجوزف أو دجو...

- في الحقيقة، لا أعرف أين يقيم. ولكنه يأتي إلى هنا كل يوم في الساعة السابعة تماماً، يمضي ساعتين من الوقت، ثم يغادر. كان يجلس برفقة والدك رحمه الله فيما قبل، ربما بقيا يأتيان مرتين في الأسبوع لسنين. أما اليوم، فهو يأتي وحده. ليس من السهل إقامة صداقات جديدة في سن معينة. والدك كان...

قاطعته بسرعة:

- أعود إذاً عند السابعة. عليّ أن أذهب الآن.

ومن الآن إلى أن يحين الموعد ليس لي إلا رفقة الكتاب الذي حملته معي. أتوجه إلى الحديقة العامة، وفي هذا الجو الربيعي، أجلس على مقعد، في ظل شجرة جميلة. أما فكرة الإعلان التي اقترحتها بروك فأؤجل دراستها إلى وقت لاحق. مشكلة تلو الأخرى.

قادم من زمن المجاعة

أعداد القتلى بالنسبة إلى مخططي الحروب، ثم إلى المؤرخين، مجرد أرقام، كما في مشروع اقتصادي، أكثر من العدو أو أقل، ربح أو خسارة. حياتنا، حبنا، خوفنا، تلخصها أرقام لا تعني الكثير لمن يتحكمون بمصائرنا.

خلال رحلتنا إلى دمشق، واجهني الموت بعنف مخيف، إذ كنت قد استعدت صحتي، بعد إقامتي في المعهد، ومعها إدراكي ما يجري من حولي. تكومت الجثث أمام ناظريّ، بعض الجثث التي كان يرفعها رجال متعبون ليلقوها في مقابر جماعية، كما تكومت في ذاكرتي، وفي القصص التي كان خالي يرويها لنا، جثث تتدلى على أعواد المشانق _هل كانت جثة العم أنيس بينها؟_، وجثث أخرى، كثيرة، في قصة أمير التي رواها للمرة الأولى، بعد أن سأله خالي عما جرى له ولأهله. قال:

- اسمي آرام. أرجو أن لا أسمع اسم أمير بعد اليوم، ثم راح يروي:

«من طفولتي أذكر قبل كل شيء شعور الخوف الذي رافقنا منذ أن بدأنا نعي ما حولنا، الخوف في عيني أمي، في توصيات جدتي، في تحذيرات والدي من الابتعاد عن المنزل في أثناء اللعب، الخوف في أحاديث الأهل في السهرات، الخوف في البيوت المزدحمة والأسطح المتقاربة، كأننا كنا، طيلة حياتنا، نستعد لما جرى... حدثت مجازر قبل أن أولد، لم أعد أعرف أين ومتى...»

- «كيليكيا، عام 1908»، قال خالي.

- أجل، بعدها ظننا أن كل المآسي قد انتهت وأن عصراً جديداً من السلام قادم علينا.»

- بعد سقوط السلطان عبد الحميد وتمرد «تركيا الفتاة»، أكمل خالي، كأنه مدرس يضيف المعلومات لتلميذ لم يدرس جيداً.

في الحقيقة، كانت معلومات آرام، مثل معلوماتي، ناقصة جداً، فنحن لم نر من المشهد إلا ما يقع في موازاة قاماتنا الصغيرة واهتماماتنا التي كانت تتوجه إلى مفاعيل ما يجري وتأثيره في يومياتنا، مهملة المسببات والمرامي البعيدة للسياسات الكبرى. بعض المعلومات أكملها خالي في رحلتنا تلك، وبعضها الآخر جمعتها من روايات النازحين الذين عرفتهم في دمشق، أو من قراءات قمت بها، طوال السنين التي تلت، لأفهم أبعاد الكوارث التي قلبت حياتنا رأساً على عقب. لذلك، أعترف أنني اليوم، حين أروي، لا أنقل بدقة قصص الرواة الآخرين التي اختلطت عليّ قليلاً، فلم أعد أميز بين ما رواه الواحد وما أطلعني عليه آخر، وبين بعض ما قرأت. أحاول تخليص خيوط الروايات المتعددة والمتشابكة وترتيبها، فلا أفلح تماماً.

كان آرام يذكر جيداً اسم قريته إفيريك، كما يذكر أن أهله كانوا آخر من غادر، لأنهم كانوا واثقين أن أحداً لن يتعرض لهم بسبب وجود شقيق والده في صفوف الضباط الأتراك على إحدى الجبهات. ولكن المضايقات راحت تزداد شيئاً فشيئاً، وأخيراً، حين وردهم نبأ استشهاد العم كريكور، انصاعوا للأوامر وغادروا مع إحدى القوافل. لم يكن أرام يذكر الاتجاه الذي سلكوه؛ قال فقط إن الطريق كان وعراً والمسيرة شاقة. ساروا طوال يومين، ثم، ما الذي حصل بالتحديد؟ أخذ الجنود الذين كانوا يحرسونهم في صفين متوازيين بالانسحاب، وبدأ إطلاق النار، وراح الناس يتهاوون من حوله، جده، عمته، أبوه، شقيقه واخيراً أمه التي هوت فوقه. ربما تقصدت ذلك لكي تحميه. شله الخوف حتى نسي أن يتنفس. لم يعرف كم مضى من الوقت وهو على هذه الحال. ربما غرق في غيبوبة، حتى جاء الجنود ليرفعوا الجثث ويرموها في حفرة. حمله أحدهم وصاح بالبقية قائلاً إنه على قيد الحياة. فتح آرام عينيه ليرى فوهة بندقية مصوبة نحو رأسه. أغمضهما

مجدداً، تعباً، ولكن صوتاً أصدر أمراً ما، ففتح آرام عينيه ليرى أن الجندي قد أنزل بندقيته، واقترب منه جندي آخر، وقدم له بعض الماء.

«لا أعرف لماذا أنقذني هذا الجندي.»

«أعتقد أنهم تلقوا أوامر بإنقاذ بعض الأولاد لاصطحابهم إلى معاهد كذلك الذي كنتم من نزلائه، خدمة لخطة بعيدة الأمد وضعتها الحكومة.» فكر خالي قليلاً ثم أضاف: «ولكن، من جهة أخرى، قد يكون هذا الجندي قام بإنقاذك انطلاقاً من حس إنساني. ليسوا كلهم أشراراً. أكثرهم ضحايا، مثلنا تماماً. خلال رحلاتي، شاهدت أفواجاً من الجنود المنهكين، الجائعين، لا يكادون يقوون على السير. يصادرون ويسرقون ليبقوا على قيد الحياة. يظلمهم أسيادهم فيظلموننا.»

خلال مسيرنا، كان بعض السكان يهرعون نحونا ويطلبون من خالي مرافقتهم للصلاة على أرواح موتاهم أو لشفاء مرضاهم، وكان خالي، في كل مرة، ينصاع لطلبهم، ويؤدي صلاة الجنازة، أو يصلي للمرضى، بينما كنا انا وآرام ننتظره متكئين على جذع شجرة، وكان يقترب منا أحياناً واحد من أهل المنزل ويقدم لنا بعض الطعام. لم نجع أبداً خلال الرحلة، بفضل هبات الأهالي أو ضيافة الأديرة التي بتنا بعض ليالينا فيها. كانت سعادتي تتلخص في رؤية ثوب خالي الأسود على الطريق أمامي وفي سماع وقع خطوات آرام إلى جانبي أو ورائي، أو في السيرأمامهما وأنا أمسك برسن البغل، وفي النظر إلى البراعم الربيعية والأوراق الصغيرة التي راحت تشق قشرة أغصان الأشجار، معلنة انتهاء زمن الياس.

* * *

استدعتنا الآنسة ماري ذات مساء، قبل أن نغادر المعهد الصناعي بنصف ساعة، إلى مكتب المديرة كما اعتادت أن تفعل حين كان أحد الأهالي يسأل عن ولد أو أكثر ضاعوا في النزوح، ولم تكن إجاباتنا إلى ذلك الوقت قد وصلت بسائلينا إلى أي باب فرج. كانت الآنسة ماري تبدو متعبة، كأنها تتعلق بابتسامة تحاول أن تهرب منها. بادرتنا بالسؤال عن أحوالنا وعن

تقدمنا في دراستنا وفي التدريب على مهنتنا، ثم تطرقت إلى الموضوع الذي طلبتنا من أجله:

- جاءني اليوم رجل قادم من أميركا يبحث عن أي فرد من أفراد عائلة شقيقه الذين انقطعت أخبارهم منذ النزوح، يأمل على الأقل أن يكون أطفاله قد نجوا من الموت... أعرف أنكم كنتم تجهلون الاسماء الحقيقية لرفقائكم في المعهد، ولكنني قلت أن نحاول. ما الذي سنخسره؟ الرجل بدا يائساً بعد أن أمضى شهرين وهو يبحث من دون جدوى.

- وهل لديه صور؟

- صورة لشقيقه وزوجته وليس للأولاد. حين غادر، لم يكونوا قد ولدوا بعد، صبيان وفتاة. قال إن الكبير قد يكون في الثانية عشرة من عمره، الفتاة في السابعة، أما الأخ الصغير فيبلغ الرابعة...

- ما هي أسماؤهم؟ سأل آرام الذي كان يعرف أكثر مني بعض الأسماء الحقيقية لرفقائنا في الميتم.

- الولد الأكبر يحمل نفس اسمك: آرام، آرام كيومجيان والفتاة...

- سوزي! وشقيقه فاهيه، قاطعها آرام.

- هل تعرفونهم؟ هتفت الآنسة ماري.

تسمرنا، عاجزين عن الكلام، ربما عن التنفس... نظام! نظام الذي لم يكف عن مضايقتي، نظام الذي روى قصته للوريقات المخبأة داخل تجويف في غصن شجرة، نظام الذي توفي قبل أيام من مغادرتنا المعهد...

- هذا أنا!

هل صحيح ما سمعت؟ لماذا قال آرام هذا؟ هل يظن الوقت مؤاتياً للمزاح؟ ما باله يلكزني في ظهري؟

- أنا آرام كيومجيان! والدي اسمه كريكور ووالدتي أربيك!

- الشكر لله، صاحت الآنسة ماري مبتهجة، ورددت خلفها المديرة: «الحمد لله».

ضمته الآنسة ماري إلى صدرها بفرح عارم وهي تقول: «لحظة كهذه تنسيني كل المعاناة والتعب.» أما أنا فكنت مأخوذاً، وسط أمواج تلطمني الواحدة تلو الأخرى بينما أصارع لأبقى واقفاً. ما الذي يحصل؟ كيف يكون آرام هو نظام؟

- سأبلغ السيد بوغوس الخبر السعيد على الفور وسيأتي لرؤيتك غداً صباحاً.

قالت الآنسة ماري هذا وسارعت إلى التقاط حقيبتها والمغادرة.

لم ينتظر أرام أن أسأله حين غادرنا مكتب المديرة وأصبحنا وحدنا. بادرني بسؤاله:

- وما الضير في ذلك؟

- كيف؟ ما الذي تعنيه؟

- هل أؤذي أحداً؟ هل أقتل؟ هل أسرق؟ أنا لا أرتكب خطيئة...

- لقد كذبت...

- كذبة لن تسبب أي ألم لأحد، بل على العكس.

- لكن لماذا فعلت هذا؟

- ألا تعلم حقاً؟ ألم تفهم؟

- لا أفهم شيئاً مما يحصل.

- أفكر في هذا الأمر منذ جئنا إلى هنا وعلمنا بأمر عشرات الأهالي الذين يبحثون عمن فقدوهم. أما أنا، فلن يبحث أحد عني. فقدت كل عائلتي. ماتوا أمام ناظريّ، لا أستطيع احتمال فكرة أنني سأمضي في الحياة وحيداً.

وهذا المعهد الصناعي حيث أدخلنا خالك ليست إلا محطة. لن نبقى هنا إلى الأبد.

- ولكنني هنا، معك.

- وماذا لو لم تبق؟ ماذا لو نقل خالك من هنا ولم يسمحوا له باصطحابي؟ ماذا لو عاد والدك من أميركا؟

- هذا جنون! لا يمكن أن تنجح!

- ما فعلته سيسعد شخصين، أنا وعم نظام، ولن يؤذي أحداً.

- وماذا لو اكتشفوا أمرك؟

- كيف يمكنهم ذلك؟

- قد يجد الشقيقين.

- هما صغيران جداً. لا يمكن أن يتذكرا. أنا وأنت نجد صعوبة في تذكر وجوه أهلنا، فما بالك بطفلين صغيرين مضى عامان على آخر مرة شاهدا فيها شقيقهما.

- لست مقتنعاً.

- إنه الحل الأمثل. سيكون لي عائلة وبيت وأمل بمستقبل أفضل.

- وكيف تتأكد أنهم سيعاملونك جيداً؟

- الرجل جاء من أميركا ليبحث عن عائلة شقيقه. لا يمكن أن يكون سيئاً.

- وخالي؟ لقد رويت له قصتك وهي مختلفة عن قصة آرام الآخر... نظام...

- وهل تعتقد أنه يتذكر ما رويت، وهو يسمع كل يوم عشرات القصص المشابهة؟

في هذا فقط كان آرام على حق، خالي ينادي الأولاد كلاً باسم الآخر، يسأل الواحد عن أحوال أهل صديق له، ثم ينسى أنه سأل، في غمرة حركته الدائمة ومشاغله التي لا تنتهي.

لم أجد ما اقوله لأجعله يعود عن قراره، فأعدت الحجج نفسها مراراً وتكراراً طوال الليلة التالية، بينما كنا راقدين على أسرتنا في الصالة الكبيرة، نتهامس لكي لا يسمعنا الصبية الآخرون، وقدم لي الأجوبة نفسها مرة بعد أخرى. سألته كيف تذكر الأسماء التي وردت في القصاصات التي كتبها نظام، فأعاد تلاوة محتوى القصاصات أمامي كأنه يقرأها. كنت أعرف أنه يتمتع بذاكرة خارقة تمكنه من الحصول على نتائج عالية في الدروس التي تتطلب الحفظ. قلت له إنه لا يمكن أن يبني لنفسه حياة جديدة على أسس كاذبة، قال إنه بعد كل ما مررنا به من أهوال ألقيت علينا من دون أن يكون لنا فرصة الدفاع عن أنفسنا، حان الوقت لكي نقف لنرد بعض الضربات التي كالها القدر لنا ونقرر مسار مستقبلنا. نمت متأخراً في تلك الليلة بعد أن اتخذت قراراً بأن أدعه يفعل ما يشاء. إن كان هو غير مهتم بالأواصر التي تربطنا، فلماذا أحزن إلى هذا الحد؟ أما مخاوفي، فلم أعرف كيف أكلمه عليها، لم أجد الكلمات المناسبة، ربما لم تكن واضحة في ذهني أيضاً. لهذا، بعد سنين طويلة، حين ساءت الأمور، لم أقل إنني أنذرته.

لم أكن مع آرام في اللقاء الأول مع عمه المزعوم، ولكنه، على ما يبدو، تم بشكل جيد، إذ رأيته، بعد ساعة من استدعائه إلى مكتب المديرة، متوجهاً صوبي، في المحترف، وهو يمسك بيد رجل غريب، وأشار من ناحيتي: «هذا صديقي يوحنا الذي كلمتك عليه.»

كان السيد بوغوس رجلاً طويل القامة، ذا شعر كستنائي فاتح، أحمر الوجه... أم أن وجهه محمر كما عينيه من الدموع التي يبدو أنه ذرفها؟ في كل الأحوال لم يكن بينه وبين آرام ذي القامة المتوسطة والشعر الأسود والبشرة السمراء أي وجه شبه. مددت يدي لأصافحه، ولكنه ضمني بين ذراعيه كأنه وجدني أنا أيضاً بعد بحث مضن. كلمني بالأرمنية، فشرح له آرام أنني أتكلم العربية وأنني من جبل لبنان.

أعرف اليوم أنني شعرت بشيء من الغيرة. كنا ما زلنا يتيمين، يشبه واحدنا الآخر. فوجود خالي وزياراته القصيرة لم تشكل بالنسبة إليّ أي ضمانة لمستقبل مستقر ضمن حياة شبه عائلية. خالي سيبقى دائماً غائباً عني، له حياته، ديره، صلواته، واجباته التي لا تنتهي، رؤساؤه، الرهبان الآخرون... يزورني من وقت إلى آخر، يسألني بعض الأسئلة على عجالة ليطمئن أنني لا أعاني من جوع أو مرض، ثم يعود إلى مشاغله. أعرف اليوم أن خيار أرام كان مأساة أخرى تبعت مآسي موت أمي وشقيقيّ واعتقال عمي ورحيل أبي... إن رائحة المأساة تجذب المآسي الأخرى فتلحق بحياة المرء، واحدة بعد أخرى، لتنهش منها، من دون كلل.

أبي... لم أستطع أن أغفر له، لأنه بقي في ذهني بصورة الشاب الممتلئ عافية، ذلك الذي خرج من البيت ساعياً وراء حياة أفضل، تاركاً إيانا للجوع وجور الأتراك. لو أنه شاخ أمام ناظري وأصابه الضعف الذي يحول كبار السن إلى أطفال محتاجين إلى عنايتنا، ربما كنت سامحته. آرام وجد في العم الذي اختاره أباً جديداً وبقيت أنا وحدي. وأميركا ستبتلع مجدداً قريباً لي ولن أراه بعد ذلك.

في هذا الأمر كنت على خطأ إذ أن عم آرام كان قد عاد بشكل نهائي وقرر الاستقرار في بيروت حيث استطاع أن يبتاع دكاناً صغيراً سيعمل فيه خياطاً للألبسة الرجالية.

«يمكنك أن تزورنا في بيروت،» قال.

لم أجبه. أردت أن أتوقف عن التفكير بمستقبل، قريب أو بعيد، لم يفتأ يخونني.

رحل آرام بعد ثلاثة أيام. أظنه فوجئ بالسرعة التي تحولت فيها كذبته الصغيرة إلى واقع حياة جديدة. عندما ودعني، كان الارتباك الظاهر على سحنته يفضح الخوف الذي اعتراه، وربما بعض الندم. أنا، من جهتي، لجأت إلى الغضب وتصنعت عدم الاكتراث. قال عمه إنه، بعد أن يستقر، سيعود

ليأخذني لأمضي شهر العطلة الصيفية في بيتهم. لم أصدقه كثيراً لأن الحرب والفوضى كانا يعيثان الخراب بكل الخطط التي كان الناس يضعونها.

حولي كان هناك العشرات من الصبية الذين يشبهون آرام، بحكاياتهم وحزنهم ووحدتهم.

كان هناك هاروت الذي لم يكن يتكلم. لا أحد يعرف إن كان قد ولد أبكماً أم أن ما شهده من ويلات في أثناء النزوح قد أصابه بالخرس. كان يتعلم النجارة مثلي ولكنه كان أسرع مني بالتعلم وأكثر اتقاناً في الأعمال التي كان ينجزها مع أنه كان يصغرني بما يقارب العام والنصف. كانت قطعة الخشب تخرج من بين أنامله ملساء متناسقة، كأن حياة جديدة قد دبت فيها. لم أكن أشبع من التمعن بها، فأقلبها بين يدي متأملاً في التحول الرائع الذي أصابها بعد أن كانت جذعاً من الخشب الميت. كان تعبيري عن إعجابي يغمره بالسرور، فيبتسم ابتسامة جميلة ويشد على ذراعي ليشكرني. كانت الآنسة ماري تكرس له جزءاً من وقتها لتعلمه كتابة اللغة العربية، وتطلب إليّ أن أتولى المهمة عنها حين تمنعها مشاغلها عن ذلك. لم يكن الأمر سهلاً بالنسبة إليّ في البداية، ولكنني راقبت الآنسة ماري ورحت أقلدها، وراحت معرفة هاروت بالأحرف تتطور، ثم بالكلمات، فأصبح قادراً على التعبير عن رغباته وآرائه ببعض الكلمات البسيطة التي كان يكتبها على دفتر صغير يحتفظ به في جيبه. أين هاروت اليوم؟ اختفى من عالمي بعد مرور بضعة أشهر على معرفتي به، إذ تبنته إحدى العائلات الأرمنية. هل استطاع أن يتكلم؟ هل عرف أحد قصته؟ هل أخبر أحداً بما رآه من مآس؟ هل أصبح له تاريخ؟

خلال سنيّ الحرب والتشرد، مرّ في حياتي عدد هائل من الأشخاص. فاضت ذاكرتي بأسمائهم وحكاياتهم، حتى بتّ عاجزاً عن التمييز بينهم، ثم، في مرحلة لاحقة، عن تذكرهم. لعل الخشية من خيانة الذاكرة هي ما دفعت الآنسة ماري على تشجيعنا على سرد قصصنا.

كان سرد القصص يشكل الشغل الشاغل لكل الأولاد الذين اجتمعوا تحت سقف منزل الآنسة ماري العجمي حيث أودعنا خالي عند وصولنا إلى

دمشق. كنا نبيت هناك ونذهب خلال النهار إلى المعهد الصناعي الذي أقامته بعض العائلات الدمشقية الميسورة لتعليم بعض المهن للأطفال الفقراء وأكثرهم من الأيتام، ولكن سرعان ما أصبح المعهد مكتظاً ولم يعد قادراً على استقبال نزلاء جدد. عندما وصلنا، واجه خالي تلك المشكلة، إذ لم يكن يسمح له باستقبالنا في الدير بشكل دائم، فتحدث إلى الآنسة ماري التي كانت واحدة من المشرفين على المعهد. عندها، كما قال خالي، أخذت قراراً كانت تفكر فيه منذ بعض الوقت، وحولت الصالة الكبيرة في الطابق الأرضي من منزلها إلى قاعة للنوم، كنا أنا وآرام أول نزلائها، ثم تبعنا آخرون، حتى ناهز عددنا العشرين، نبيت فيها ونذهب في النهار إلى المعهد. كانت شقيقتها، الآنسة إيلين، أستاذة الموسيقى، هي من يدير المنزل، ويسهر على الترتيب والنظافة ويعطي التوجيهات لجيهان الخادمة. وكانت، عند العصر، بعد أن تنهض من قيلولتها، تعزف على آلة البيانو الموضوعة في زاوية من الصالون ألحاناً توقظ فيّ حزناً جميلاً لم أكن أفهمه. وكانت إقامتنا في منزلهما مؤقتة، بانتظار حل نهائي لمشكلة سكننا.

كان الأولاد الأرمن يشكلون الأكثرية الساحقة من سكان المنزل كما من تلامذة المعهد، بالإضافة إلى بعض الأشوريين. في المعهد، كان الصمت يلف العلاقات، إذ لم يكن واحدهم يجرؤ على التكلم في غير الأمور الضرورية، لكي لا يفتح كوة في الجدار الذي أخفى خلفه الأهوال التي عاشها.

في المنزل، خلال الأمسيات، لم تفتأ الآنسة ماري تحثنا على الكلام. بدأت الحكايات تخرج متعثرة، مقطّعة، ، ثم راحت تنطلق متحررة من الخوف أو الحياء. لا أزال إلى اليوم أعجب من ضعف الأولاد وقوتهم في آن في مواجهة المآسي، ضعفهم إذ يشعرون، عند أي اعتداء، بمسؤولية غامضة وشيء من الخجل. وقوتهم في تناسي المآسي والإقلاع في رحلات العمر الجديدة. حاصرتني قصصهم عن القتل والتهجير وفقدان الأهل. يومها انقسم العالم في ذهني إلى أتراك أشرار وأناس مظلومين. يومها لم أكن أعرف شيئاً عن تزوير التاريخ وعن رأي عام تسيره قيادات ربطت حول عنقه حبال

الطائفية تشده بها إلى حيث تشاء وتجزم أن هذه هي الحقيقة. بعدها، حين عرفت، غدت تلك القصص ثمينة، أحتفظت بها في ذاكرتي ثم نقلتها في كتبي.

يسردون ونسمع، وتمضي السهرات الحزينة ممررة ساعاتها فوق جراحنا التي لم تندمل. حين حان دوري لأحكي، شعرت أن قصتي أقل تشويقاً من قصص الآخرين، فلا إطلاق نار ولا ذبح أو حتى سرقة. فقط أناس جاعوا ومرضوا، ثم ماتوا بصمت. ربما كانت قصتي عادية، أو أنني لم أكن راوياً ماهراً. كان فاهيه الأكثر تفوقاً، لهذا كان له أن يكرر قصته مرات عدة من دون أن نملّ. كان يواظب على طرح الأسئلة، مثل مدرس يسعى إلى شد انتباه تلامذته، أو مثل كاتب ماهر يجيد تقنيات التواصل مع القراء:

«متى بدأ كل شيء؟ في السادس والعشرين من حزيران حين علقوا على حائط الكنيسة ورقة كتبوا فيها أن على السكان الأرمن أن يغادروا خلال خمسة أيام، بالإضافة إلى عدد من الشروط التي تتضمن عدم بيع الأملاك.

كيف عللوا ذلك؟ كتبوا أن تلك الإجراءات تهدف إلى حماية السكان في زمن الحرب. هل صدقهم أهلنا؟ على الإطلاق، ولكن ما الذي كانوا يستطيعون أن يفعلوه؟»

أما يسوغ فأخبرنا أنهم، في المدينة حيث كان يعيش، أخذوا الأطفال الصغار ووضعوهم في أكياس وأغرقوهم في البحر، وأن أحد سائقي العربات التي كانت تقلهم كان يعمل في مصنع النسيج الذي كان يملكه والده، وأنه عاد ليخبر والدته المفجوعة أنه أخفى الكيس الذي وضعوا فيه شقيقته الصغيرة تحت مقعد العربة، ثم ما لبث أن عاد بالفتاة إلى بيته حيث ستهتم بها زوجته بانتظار أن تهدأ الأمور.

«لكن الأمور ساءت، وجاء الجنود في اليوم التالي ليدفعونا إلى الخروج من بيوتنا والبدء بالسير إلى المجهول وشقيقتي ما زالت في بيت

ذلك السائق التركي وأمي ظلت تقول كل يوم إنها ستعود لتبحث عنها، حتى مرضت وماتت، وأنا لا أعرف كيف أبحث عنها».

الآنسة ماري، التي كانت مشاركة في حلقة الروايات تلك، قالت إنها ستسعى لمساعدة يسوغ عبر الاتصال بإحدى الجمعيات التي تساعد الأهل على إيجاد المفقودين. قالت ذلك من دون أن تبدي حماساً. ربما لأنها متعبة من كل تلك الأحزان التي غالباً ما لا تجد حلولاً، أو ربما لأنها لم تكن تريد أن تعطي أملاً كاذباً ليسوغ.

قصة يسوغ ستحظى بخاتمة سعيدة وسأعرف لاحقاً أن سائق العربة سلم الفتاة الصغيرة إلى إحدى الجمعيات اليونانية محدداً اسمها واسم عائلتها. تلك الجمعية ستنقل الأطفال الذين في عهدتها إلى جزيرة في اليونان وستبدأ من هناك الاتصال بجمعيات أخرى سعياً لترميم بعض ما تمزق من الأسر. هكذا سيعرف يسوغ أن شقيقته موجودة في اليونان، وسيرسلونها إلى دمشق. حين سيلتقي يسوغ بشقيقته ستكون في الثامنة من عمرها، وستكون أربع سنوات قد مرت منذ أن وضعها جندي في كيس أبيض كبير، فراحت تبكي إلى أن همس لها صوت رجل طيب قائلاً إنه سيعيدها إلى أمها شرط أن تصمت.

كل تلك النهايات عرفتها من الآنسة ماري التي بقيت على اتصال بكل واحد فيهم، إلى أن تعبت بدورها وألقت عن كتفيها مهمة الصراع واستسلمت للحزن السائد، حزن ما بعد الحروب الكبرى والثورات التي تتمخض عن حال شبيهة بما سبقها، إن لم تكن أسوأ.

من يدري ما تتركه قصص الفراق واللقاء هذه من آثار في حياة من عاشوها؟ في حياتي، ستشكل جرحاً عميقاً لا أكاد أظنه قد اندمل حتى يعود للنزف مجدداً.

أشود استمع إلى قصصنا كلها من دون أن يتكلم. ينظر إلينا بعينيه الواسعتين ويهز رأسه ببطء. ما كان لتلك الهزة من معان؟ شفقة؟ مواساة؟ لو تعلمون؟ على الارجح كانت تلك الفكرة الأخيرة: لو تعلمون ما حصل

لي... حين تعب من إلحاح الآنسة ماري، ومن الهروب إلى الخلف والاختباء وراء الآخرين، حين صمتنا جميعاً وانتظرناه، قال: «فعلوا أشياء لأمي». وعاد الصمت مجدداً، ثقيلاً، لزجاً... «اغتصبها الجنود.» قالت الآنسة ماري بصوت أبح، ونحن، كما يحصل في الأحاديث المرتبطة بالجنس، فهمنا بشكل مبهم. أما أشود، فراح يهز برأسه: لو تعلمون.

كان هناك جوزيف الأشوري من مردين الذي انفصل، في خلال رحلة النزوح، عن شقيقه التوأم أفرام وأضاعه. قبل أن يتشرد على الطرقات ويلتقطه الجنود الأتراك ويقتادونه إلى مخيم في دير الزور، كان الأكراد قد قتلوا والده وأعمامه، وباعوا شقيقته ووالدته في سوق النخاسة بعد أن أجبروهما على اعتناق الإسلام.

هكذا تتسكع في ظل الله كل الحروب، حتى تلك التي لم تبدأ باسمه...

غدا جوزيف وحيداً لا ينجح في لملمة أشلائه. سيظل يبحث عن أفرام طيلة حياته، يسأل في المياتم، يزور الناجين من المجازر، يدفع لهذا أو ذاك من متصيدي الآلام، الناهشين من أرواح المعذبين، ولا يجده ولا يتعب من البحث. وسيلاحقه هول المجزرة التي عاشها في كل لحظة من حياته، تلك المجزرة التي سيطلق عليها الأشوريون اسم «سيفو» ستخطف منه القدرة على إنشاء عائلة وبناء حياة جديدة.

كانت الآنسة ماري تجلس معنا في السهرات، تحتسي برفقتنا الشاي وتشجعنا على الكلام وتستمع، مرة أو مرتين في الأسبوع، ثم تمضي إلى أعمالها خلال النهار. يومها لم يخيل لنا أن لها قصتها أيضاً، حزينة مثل باقي قصصنا، فقد كانت تبدو جبارة كجبل، يمكننا أن نسند عليه أعمارنا الصغيرة المتعبة، أن نرتاح في كنفه بانتظار أن تنجلي الغيوم التي تكاثرت في سمائنا.

أنقذتني الآنسة ماري مرتين. المرة الاولى حين آوتني مع مجموعة من الأيتام الآخرين في منزلها، والمرة الثانية حين اقتادتني نحو الكتب وسمحت لي أن أكتشف متعة القراءة. فبعد رحيل آرام، رحت أقرأ. بدأت رحلة

القراءة حين طلبت منا الآنسة ماري أن نساعدها في نقل بعض الكتب إلى مكتب المجلة التي كانت تصدرها، مجلة «العروس»، أول مجلة نسائية في سورية. ولكن المجلة كانت قد توقفت بسبب الحرب، فحولتها إلى مكان للقاء المنتديات الأدبية التي كانت تشارك فيها أو تديرها، بانتظار أن تسمح لها الظروف مجدداً بالعودة إلى النشر، كما كانت تعمل هناك على إنجاز الترجمات التي تكلف بها، وتعطي يومياً دروساً خصوصية لعدد من الفتيات. وقفت مشدوهاً أمام المكتبة الضخمة التي كانت تغطي كل جدران المكتب. عادت إليّ في تلك اللحظة صورة مكتبة العم أنيس؛ رأيته واقفاً يرتب الكتب على رفوفها، أو يمسح الغبار بحنان، رأيته جالساً على كرسيّ بجانبها وهو يقرأ، أو يكتب على صفحات الكتاب الذي يمسك به، كأنه غائب عن العالم الذي نعيش فيه، يضع يده فوق عينيه كستار يفصله عما يحيط به. رأيت أخيراً الكتب مرمية، ممزقة، تحت أقدام الجنود العثمانيين الذين اقتادوه مكبلاً إلى جهة مجهولة. التقطت كتاباً عن أحد الرفوف ورحت أقلب صفحاته. اقتربت مني الآنسة ماري وسألتني إن كنت أحب القراءة فأجبت: «كان عمي يقرأ كثيراً، وكنت أحلم أن أصبح مثله. أذكر أنني، عندما كنت صغيراً، كنت أنظر إلى الكتب متسائلاً متى سأتمكن من تصفحها وفهم ما تحتويه»، فارتسمت على وجهها تلك الابتسامة الدافئة التي كانت تمسح بها أحزاننا من دون أن تنجح في طرد الحزن عن وجهها، وقدمت لي كتاباً صغيراً قائلة: «يمكنك أن تبدأ بما يناسب سنك. إنها قصة جميلة مترجمة عن الفرنسية لكاتبة كانت تكتب القصص لأحفادها: الكونتيس دي سيغور. كان عنوان الكتاب الأول الذي قرأته في حياتي: «الشيطان الصغير الطيب»، بعدها، قرأت كل كتب تلك الجدة، بالعربية أولاً، ثم، بعد أن تلقنت اللغة الفرنسية في المدرسة، بلغتها الأصلية. كما كنت أقرأ كل ما يقع في متناولي، ما افهمه أو لا أفهمه كثيراً. أصبحت الكتب عالمي وشخصياتها أفراد عائلتي، وترتبت رؤيتي للعالم وفق مقاييس كانت خلاصة الأفكار التي اكتشفتها بين دفتيّ الكتب. كنت أقرأ الكتب التي أحبها مراراً وتكراراً وأجد لذة كبيرة في إعادة قراءتها، كما لو كنت ألتقي من جديد بأشخاص عرفتهم وأحببتهم، حزنت لحزنهم وفرحت لسعادتهم. الكتب التي كنت أعيد قراءتها

كانت تلك التي تحمل نهاية سعيدة، إذ كنت أحقد على الكاتب الذي يختار أن ينهي كتابه بمأساة.

شيئاً فشيئاً، اعتدت أن أقصد مكتب المجلة بعد دوام المعهد، أقدم بعض الخدمات للآنسة ماري ولصديقتها، الآنسة فريدة التي كانت موجودة دائماً هناك، وأحضر بعض لقاءات المنتديات الأدبية، واجتماعات جمعية «يقظة المرأة الشامية» التي أسستها الآنسة ماري، وأستمع بإعجاب إلى تلك المجموعة من الأشخاص الكبار يناقشون بجدية فائقة مواضيع أدبية ولغوية وفكرية واجتماعية. أجلس بعدها في زاوية هادئة وأغرق في القراءة حتى وقت متأخر، أقرأ كتباً تنصحني بها الآنسة فريدة أو الآنسة ماري، وعندما أتعب، أتصفح أعداد مجلة العروس، باحثاً عن أسماء كتّاب أعرفها لأنني قرأتها على أغلفة الكتب في مكتبة عمي أنيس، أو لأنه أخبرني عنها فيخيل إليّ أن رابطاً ما يجمعني بها: جبران خليل جبران، ميخائيل نعيمه، أحمد شوقي، شبلي الملاط، حافظ ابراهيم، عباس محمود العقاد، فارس الخوري وغيرهم... ثم أرافق الآنسة ماري في طريق عودتنا إلى المنزل. في أثناء سيرنا في هدأة الليل، لم تكن تتكلم كثيراً. كانت تسألني عن قراءاتي، فأجيب باقتضاب ونكمل مشوارنا بصمت.

سألتني ذات مرة:

«هل قرأت قصيدة «مات أهلي» لجبران خليل جبران؟»

أجبتها بالنفي، فوعدتني أن تبحث عنها بين أوراقها، مشيرة إلى أنها مترجمة عن الإنجليزية. أتساءل اليوم إن تقصدت أن تطلب مني قراءة هذه القصيدة لغرض كانت تدركه. لم تنس وعدها، وفي اليوم التالي، عندما دخلت إلى مكتبها، أشارت إلى وريقات على طرف الطاولة وقالت: «القصيدة التي كلمتك عليها.» وانسحبت من الغرفة وتركتني في مواجهتها. أي كوة تلك التي فتحتها تلك الكلمات في السور الذي بنيته حول ذاكرتي؟ صفعتني المقدمة:

«مات أهلي وأنا على قيد الحياة أندب أهلي في وحدتي وانفرادي. مات أحبائي وقد أصبحت حياتي بعدهم بعض مصابي بهم، مات أهلي وأحبائي وغمرت الدموع والدماء هضبات بلادي، وأنا هاهنا أعيش مثلما كنت عائشا عندما كان أهلي وأحبائي جالسين على منكبي الحياة وهضبات بلادي مغمورة بنور الشمس.»

مع تقدمي في القراءة كانت تقلصات الجوع في معدتي تشتد ايلاماً، وكانت صور من ماتوا تحيط بي في رقصة أصابتني بالدوار. اقتربت مني وردة ونظرت إليّ بعينين فارغتين، أما عيد فراح يضحك ضحكة مخيفة، وأمي تقترب وتبتعد، وشعرها الأسود الموشح بخصلات بيضاء يتطاير خلفها، والعم أنيس يدورمن دون أن يلتفت إليّ، وأبي يقف بعيداً ولا يشارك في الدوران. والأرغفة السوداء تتكدس أمامي وأنا عاجز عن تناول قضمة منها على جوعي...

قفزت من مكاني وركضت نحو البوابة الخارجية حيث تقيأت على الطريق كل ما كنت قد تناولته من طعام. شاهدت مراراً، في أثناء تجوالي برفقة عائلتي، أناساً يتقيؤون دماً على الطرقات. كيف لي أن آكل ما تعده جيهان من مآكل شهية، على شح الموارد، بعد كل ما عشته؟ جيهان كانت دائمة الشكوى، تشكوني إلى الآنسة ماري التي تكتفي بأن تقول: «عليك أن تأكل أكثر. أنت في مرحلة النمو.» أحاول، فلا أفلح. أشتهي الطعام، وأبدأ بتناوله بتلذذ، ثم يوصد في معدتي باب ما يمنعني من استقبال المزيد. «إذا بقيت على هذه الحال، ستصاب بالمرض.» تردد جيهان مهددة. وأنا أعدها أن أحاول أكثر في المرة القادمة، ولكنني أفاجأ مجدداً بالباب الذي يغلق وبالطعام الذي يقف عند عتبة معدتي، رافضاً العبور. علاقتي بالطعام لن تتحسن على مدى السنين وستظل تتراوح بين إقبال شره وقرف وامتناع قد يطولان لأيام.

ذات أمسية، بينما كنت أساعد الآنسة فريدة في ترتيب الأعداد القديمة من مجلة العروس، سألتها:

- لماذا ترتدي الآنسة ماري الأسود دائماً؟

تنهدت الآنسة فريدة وصمتت قليلاً، كأنها تتردد، قبل أن تجيبني:

- ألا تعرف قصة خطيبها؟

أجبتها بالنفي. من أين لي أن أعرف؟ في الأسابيع التالية، أدركت، بعد أن اختبرت رغبتها في الكلام التي سببت لي الضيق في بعض الأحيان، أن سؤالها هذا لم يكن إلا مقدمة لحديث كانت تتوق لأن تبدأه، ويطيب لها أن تسترسل فيه من دون أن تأبه لعمر المستمع أو قدرته على الفهم. لم أكن قد تجاوزت الثانية عشرة يومها، ولكن ما عرفته وعانيت منه في عمري القصير جعلني أفهم الكثير عن قصص الحب والموت. توقفت الآنسة فريدة عن العمل ودعتني للجلوس إلى جانبها قائلة: «فلنسترح قليلاً وسأخبرك.»

أجساد سوداء تتدلى على أعواد المشانق، وجلاد ينتظر أن يلفظ الشهداء أنفاسهم الأخيرة قبل أن يتقدم منهم ليحملهم ويضعهم في العربة، وجمال باشا خلف مكتبه يقهقه طويلاً. وعائلات تقرأ الخبر في صحف اليوم التالي. رفقاء في السجن ينتظرون تعداد أسماء المحكومين بالإعدام. سجون قذرة، سجن بيروت أو سجن الجامع المعلق في دمشق، وسجانون كالحيوانات المفترسة، ومحاكمات صورية في قاعات مقفلة تشبه المسرحيات الهزلية، بينما يعمل العمال في ساحة البرج في بيروت وساحة المرجة في دمشق على بناء السقالات وتعليق المشانق...

وماري العجمي ابنة العائلة المرموقة، المدرّسة، الشاعرة، الممرضة، تنتقل بين الزنازين، تدفع رشوة للحراس ليسمحوا لها بزيارة سجين مريض، بنقل رسالة إلى سجين آخر من أهله، بحمل كتاب إلى سجين يشتاق إلى القراءة، تدفع لتكلم سجيناً بوساطة قسطل مياه، تدفع ليسمحوا لها برؤية خطيبها بترو باولي. وبترو هادئ، يطمئنها: سيطلقون سراحه لأن اسمه لم يكن بين الأسماء التي وجدوها في القنصلية الفرنسية ممن اتصلوا بالفرنسيين أو الإنكليز. كل ما فعله هو كتابة بعض المقالات التي طالب فيها ببعض الحقوق للشعب، والسلطة العثمانية كانت فيما قبل تغض النظر عما يُكتَب، فهي، إن لم تفعل، ستضطر لاعتقال العشرات من الصحافيين... بترو الأنيق، الذي كان شديد الاهتمام بملبسه وتسريحة شعره، في تلك الثياب

التي لم يغيرها منذ أسابيع. بترو ينظر إلى الحارس الذي يضع إصبعه القذر في سطل اللبن الذي أحضرته له والذي كلفها لتدخله إلى السجن جزءاً من ثمن خاتمها الذهبي الذي أهداه لها والدها بعد عودته من إحدى سفراته. بترو يقول لها: «لا داعي لكل هذا. غداً أخرج ويطوي النسيان هذه الأيام السوداء.» وهي تضع منديلاً على أنفها وتتساءل كيف يستطيع بترو ورفقاؤه أن يعيشوا وسط هذه الروائح النتنة. تلك الابتسامة التي ارتسمت على ثغره عندما غادرت هل كانت حقيقية، أم أنه تصنعها ليطمئنها؟ تلك الابتسامة ما زالت تحرق أحشاءها إلى اليوم.

«ماري ترهق نفسها بالعمل، تدرّس في المعهد، تهتم بصالونها الأدبي، بالعمل الاجتماعي... لا تترك لنفسها دقيقة ترتاح فيها، لكي لا تفكر في ما فقدته. لم تكتب قصيدة واحدة منذ استشهد... كانت تعشق الطبيعة وتكتب عنها أجمل القصائد. أجزم أنها لم تنظر إلى شجرة ولا شمت رحيق زهرة منذ رحيله.»

في دارها، حول البركة، لم يكن هناك ورود ونباتات كما الحال في كل الدور الدمشقية. كانت قد طلبت من شقيقتها أن تخرجها من المنزل لتضع مكانها مقاعد ليجلس عليها الزوار، بعد أن حولت الصالة إلى مخدع لنا. هل أبعدتها لكي تحجب عن نظرها كل ما يذكرها بالربيع الذي غاب عن حياتها؟

بعد ما روته لي الآنسة فريدة لم أستطع النوم لليال عدة. صورة جمال باشا السفاح كانت تطل فوق سريري في الظلام، وأبواب السجن تقفل من حولي، وأنا أنام على كرسي مخافة أن يتسلل إلى جسمي البعوض الذي كانت تعج به الفرش البالية، والسجناء المجرمون يترصدون بي، والجثث تتكوم في أحلامي، وأرى مراراً وتكراراً تلك الجثة المتعفنة التي شاهدتها الآنسة ماري وقد حملها السجانون ليخرجوها بعد أن مضى يومان على وفاة صاحبها. وأنا وحدي. وتلك المرأة التي بدت لي جبارة، لا تعرف الخوف، أصبحت سيدة هزيلة متّشحة بالسواد، تخفي حزنها وراء سحنة هادئة وكلمات متزنة وصارمة. ذلك الحزن جعلها أقرب إليّ. أنا يتيم، وهي أرملة.

منذ ذلك اليوم ولد في قلبي تجاهها حب الإبن الذي يكتشف أن والدته تشكو من ضعف ما، وأن عليه أن يقف إلى جانبها ويحميها.

بعد سنوات من معرفتي بها، أيقنت أنها لم تكن يوماً ضعيفة، حتى حين فقدت خطيبها. كانت متماسكة في مشاعرها، جبارة في خياراتها، لا تهادن ولا تساوم... ربما لو كانت في غير هذا الزمان وهذا المكان لكانت ستكون قائدة تسير بالجيوش نحو النصر، أو بالوطن نحو النهضة... قدّر لهذا الوطن أن يأتي إليه كباره في زمن مبكر جداً.

لعل أغرب ما سمعت أو قرأت عن هذه السيدة العظيمة هو عمل قامت به قبل أن أعرفها: اقتحامها مقر جمال باشا في داماسكوس بالاس اوتيل، والجلبة التي أثارتها على الدرج حين حاول الحراس منعها، وإصرارها على الدخول إلى مكتبه، حتى لفتت الضجة انتباهه، فخرج من مكتبه مستفسراً عما يجري، وطلب من الحراس أن يسمحوا لها بالصعود. وقفت أمامه بهدوء وانتظرت أن يدعوها إلى الجلوس قبل أن تبدأ بشرح غرضها. أخبرته عن معاناة السجناء والمعاملة السيئة التي يلقونها، وتكلمت على براءة العديد منهم من التهم التي وجهت إليهم، وخصت بالذكر خطيبها بترو باولي... أخبرتني الآنسة فريدة أن الطاغية أصغى إليها باهتمام وقال تلك العبارات التي يجيدها أهل السياسة الذين يحترفون الكذب، فتصيب المستمع بإعجاب هائل سرعان ما يتبدد حين يخضعون لامتحان التنفيذ، حتى أنه أبدى استغرابه وبدا غير مطّلع على حال المساجين السيئة، وقال إنه سيهتم بالموضوع بشكل شخصي. وعدها خيراً، فخرجت من مكتبه مطمئنة.

حين أستعيد اليوم ذكريات ذلك الزمن، أراها تذرع شوارع دمشق بثقة الجندية الشجاعة والمؤمنة التي لا تفقه الكثير من ألاعيب قادة الحروب. ولكن هذا الدرس القاسي سيبعدها في المستقبل عن أي احتكاك بهؤلاء القادة.

بعد سنين، عندما ستستولي فرنسا على دمشق، ستتسلم دعوة من رئيس الوزراء الجديد إلى اجتماع لأصحاب الجرائد والمجلات مع مدير إدارة

المطبوعات الفرنسية، ولن تلبي الدعوة... سيكون اللقاء مجرد إملاءات بصيغة مهذبة تحت ستار نصائح وتقدمات ووعود بمزيد من المساعدات. ستقرر الآنسة ماري أن تحافظ بأي ثمن على استقلال مجلتها وتبقى على إصرارها على الرغم من الرسائل التي ستوجه إليها لإقناعها بضرورة التعاون مع حكومة الانتداب. في ذلك ستكتب:

«ولم يمر ردح طويل على ذلك حتى جعل أحد معارفي يتردد إليّ كل مساء محاولاً إقناعي بأني إذا هتفت لفرنسا وأنشأت الفصول معددة الإصلاحات التي منّ بها الانتداب علينا، فزت بأجر شهري ضخم من الذهب الوهاج.

وشهد من ذلك بعض زائريّ، فحاولوا مساعدته على إقناعي بالقبول، ثم طفقوا يسخرون معه مني لإصراري على الرفض، إلى أن فاجأته يوماً بقولي: ما هي تلك الإصلاحات التي تريد أن أكتب عنها؟ قال: عليّ أن آتيك بقائمتها مرة بعد أخرى، وعليك إقناع القوم بها شفاهاً وخطابة وكتابة. قلت: لتنجز فرنسا أولاً ما تعدنا به من الإصلاحات، فأترنم بذكرها مجاناً! وكان جوابي هذا له آخر عهدي به.»

كم درساً قدمت لي معلمتي! علمتني أن السلام الداخلي والرضى عن النفس يكمنان في الإيمان بقيم عليا وفي رسم مسار للعمل واليوميات والعلاقات لا يحيد عن تلك القيم.

لم تكلمني أبداً على حبيبها الشهيد. قرأت ما كتبت عنه فيما بعد وما كتب عنه الآخرون. أجزم أنها لم تتكلم عليه مع أي من أشقائها أو أصدقائها. ربما لو تكلمت لما حملت معها ألمها إلى القبر، ربما كانت استطاعت أن تحوله إلى ذكرى حزينة وجميلة تدفئ ليالي الوحدة، أن تستعيد بفرح ذكرى لقائهما الأول في بيروت حين أسرّ لها بلهفته للقائها والتعرف بها، بعد أن قرأ كتاباتها وأعجب بعمقها وبشجاعتها... وذكرى لقائهما الثاني، بعد يومين، حين طلبت منه أن يكتب مقالاً أو مقالين لمجلة العروس، فأكّد لها رغبته في أن يكون المراسل الدائم للمجلة. يومها تعجبت من طلبه، فقد كان بترو صحافياً لامعاً تتسابق الصحف إلى الحصول على مقال منه، ومجلتها، على رواجها،

تبقى مجلة نسائية متواضعة بالمقارنة مع كبرى المنشورات التي كان يكتب فيها. وقبل أن تغادر بيروت بيومين، دعاها إلى الغداء في منزل أهله بحجة أن شقيقته تنوي متابعة دراسة التمريض في الكلية السورية مثلها، وأنه يحب أن تنصحها في هذا الشأن. أمضت أوقاتاً جميلة برفقة هذه العائلة المثقفة اليونانية الأصل، وعزفت مع شقيقته على البيانو، وبدا لها أن الحرب ابتعدت والمشاكل تلاشت، وأن المستقبل قرر أن يغير مساره ويجتنب المآسي.

بعد أسبوعين من عودتها إلى دمشق، وبينما كانت جالسة إلى مكتبها، تضع اللمسات الأخيرة على افتتاحية العدد، دخلت الآنسة فريدة وقالت إن شخصاً قادماً من بيروت يريد أن يراها.

«من؟» سألت.

«أنا. هل تذكرينني؟»

بالتأكيد كانت تذكره، وتتذكر كل ليلة، قبل أن تغفو، كل كلمة قالها، كل نظرة، وتلك الملامسة التي ولّدت شهاباً من نار سرى في جسدها، هل كانت مقصودة؟ وقفت أمامه من دون أن تتمكن من الكلام، فظنها متضايقة.

«هل جئت في وقت غير مناسب؟»

تمالكت نفسها ورحبت به، ودعته للجلوس. وقفت الآنسة فريدة تراقبهما وهما يتسامران. هو شاب جميل يملك ابتسامة ساحرة وقامة رياضية، وهي امرأة ذات جمال عادي، كما أنها كانت تصر على ارتداء الملابس البسيطة والابتعاد عن الزينة ... ولكن مظهرها عادي فقط حين تكون صامتة، صححت الآنسة فريدة لنفسها وهي تعد لهما فنجانين من الشاي، فهي، حين تتكلم، تتحول إلى امرأة ساحرة، تسحر بصوتها العميق، بالشغف الذي يتبدى في كلامها كما في ملامحها، تسحر بعمق أفكارها حتى حين تتكلم في الشؤون اليومية.

بترو وقع، منذ اللقاء الأول، تحت تأثير سحر هذه المرأة التي لم ير لها مثيلاً في حياته. حوله، كانت النساء، حتى المثقفات منهن، يمضين الوقت في الاهتمام بملابسهن وبالحفلات والدعوات، حتى لا يجدن الوقت للتفكير بغير ذلك، لا بالسياسة ولا بالحرب، ولا بالمجاعة التي تضرب البلاد وتقتل الآلاف. يعشن داخل عالم خاص يفصله صخب الموسيقى والأحاديث السطحية عن العالم الآخر، ولا يفهمن لماذا قد تفسد الواحدة منهن تلك العيشة الجميلة بالاهتمام بما لا يعنيها. أما السياسة فلا يفقهن منها شيئاً، ويرين فيها شأناً يخص الرجال وحدهم. يتسابقن لاستقبال جمال باشا في حفلاتهن ويجدنه رجلاً أنيقاً وجذاباً يجيد فنون الحديث والرقص.

حتى لحظة لقائه بماري، لم يكن بترو يعرف أنه يبحث عن نوع آخر من النساء. كانت علاقاته الغرامية السريعة وغير المعقدة منسجمة مع أجواء الأحياء الميسورة في بيروت. سهرات ونزهات وبعض الكلام المعسول، وعلاقة سريعة منها ما يتوقف عند حدود الغزل والقبلات ومنها ما يتطور أكثر، ولكنها تبقى بعيدة عن أي وعد بارتباط جدي.

حين رأى ماري، غدا همه الوحيد أن يعرف عنها كل شيء، ولكن أيضاً أن تعرف عنه، وأن يعجبها ما تراه فيه، مثل طفل يطمح لأن يحظى بإعجاب شخص راشد يعجبه. تمنى أن ترمقه عيناها السوداوان الواسعتان بنظرة رضى، أن تعجبها ثقافته والتزامه الوطني. هكذا كانت البداية، وهذا ما حمله على تنكب مشاق السفر إلى دمشق ليلقاها. حب استكشاف وتوق لأن تكتشفه هي. وهي أحبت ما اكتشفته، أحبت شغفه، وايمانه بمبادئ كانت قد كرست حياتها لأجلها. هكذا تبدأ قصص الحب الكبيرة، وقصة بترو وماري بدأت كبيرة وانتهت هائلة. ولكنها انتهت بسرعة، لم يتسن لها أن تهنأ بحبها طويلاً، إذ تم اعتقاله بعد شهرين فقط من خطبتهما. بعدها زارته مرتين أو ثلاثاً في السجن، وكتبت له كل يوم رسالة كانت توصلها له حين تسمح الظروف بذلك. في الزيارات، كما في الرسائل، كان كل منهما يحاول أن يخفف عن الآخر، وأن يبدو بمظهر قوي لكي لا تنهار قوى الحبيب. لم تكن

رسائلهما صادقة، لم تحمل هلعهما من الدنيا التي ضاقت حولهما ومن المستقبل الهارب نحو أفق لا يملكان أن ينظرا إليه.

ولكن ماري لم تكتب عن موته هو تحديداً ولا عن وجعها.

بعد انتهاء الحرب، أعادت نشر مجلة العروس، فقرأتُ في العدد الذي صدر في الرابع والعشرين من شهر مايو من العام 1924، مقالاً يحمل عنوان «أسرار وتذكارات السادس من أيار» جاء فيه:

«إذا قلت الشهداء عنيت أولئك الذين قتلوا حباً بالاستقلال لا الذين بذلوا الجهود لنقلنا من تحت الدلف إلى تحت المزراب. فهؤلاء كانوا واسطة حرمان أولئك من التكريم حتى بتنا نخشى أن نذرف على مثاويهم العبرات فيقاسموهم إياها أو يفوزوا بها وحدهم ويستأثروا بها دونهم. ثم أن جمال باشا، بالكتاب الذي برّأ به ساحته وأذاع فيه إنصافه... قد جعل بعضهم في منزلة الواشين مما زاد في إعراض الأمة عن تكريم شهدائها الحقيقيين لولا بضعة كتب أو فصول احتُفظ بها ببعض حوادثهم ورسومهم على سبيل المتاجرة لا التعظيم.»

قراءة هذا المقطع من المقال كان لها أثر نصل سكين يغرز في قلبي، إذ لخص كل البلبلة التي كانت وما زالت تثار في وطني لتموه الفرق بين الحقيقة والخداع، بين العمالة والبطولة... يتداخل الأبيض والأسود فيجد الرمادي مسوغاً لسيطرته على أجواء الوطن المنكوب.

في نهاية المقال تناشد أرواح الشهداء بأسئلة موجعة:

«فيا أرواح الشهداء، يا أيها المخلوقات البائسة الشقية، هل خففت آلامك وأوجاعك حالة صارت إليها سوريا؟ هل تحسين بدبيب الطمأنينة وتؤمنين حق الايمان بزوال النفور بين إخوانك الأحياء وقيام كل منهم بالسهر على واجبه الوطني حرصاً على استقلال البلاد تحت ظل علم خفاق نسجته أيدي الإخلاص؟ هل أنت راضية عن تلك الأعواد التي عُلّقت عليها وهل أفرخت فأزهرت آمالاً جالت في أحلامك وعقدت ثماراً سُقيت بدمائك فأمنت

عليها شر العقم والجفاف ووثقت بأنها لن تصير فيما بعد وقوداً... أو تصلح لتعليق آخرين من الشهداء؟»

بماذا أجيبك يا أستاذتي؟ أأقول إنني أفهم حزنك وأشارك خيبتك بعد التضحيات التي قدمت والآمال الكبيرة التي رسمت صورة الوطن القادم؟ إنني أفهم أن تختاري، في نهاية حياتك البعد عن الحياة العامة والعزلة التامة؟ أأقول إنك لست استثناء وأن هذا مصير كل من لا يرضى بالمساومات وأنصاف الحلول؟ في وطننا قيّض لنا أن نرضى بأرباع الحلول.. أو أن نرحل... إلى داخلنا أو إلى خارج هذا الوطن وخارج أحلامنا.

هي أيضاً، مثل باقي العائلات، علمت بموت بترو باولي في اليوم التالي، عندما أحضر لها موزع الجرائد جريدتها، فدفعت ثمنها، وأمسكتها، ونظرت إلى الصفحة الأولى وقرأت العنوان، وأخذت ترتجف، وبحثت بتوتر بين الأسماء، فإذا باسمه بينها، قرأت مجدداً... أسماء كثيرة تعرفها، أدباء وصحافيون قدمت لهم بعض المساعدة، وهو معهم. تهاوت على الأرض، وبقيت هناك، قرب الباب، لوقت طويل، بين الصحو والغيبوبة. لم تطلق صرختها. ربما لو أطلقتها لما حملت ألمها معها إلى القبر. بقيت هناك حتى جاءت شقيقتها وساعدتها على الوقوف والتوجه إلى الكرسي قرب البركة الصغيرة. هناك، بين الورود والشجيرات، لفها أريج الياسمين، حاصرها، فأصبح منذ ذلك اليوم رمزاً للحب المفقود.

لم تكتب عن بترو؛ كتبت عن كل السجناء وكل الشهداء ولم تسمح لشؤونها الخاصة بأن تتسلل إلى مقالاتها، وحتى أشعارها. أرادت أن لا تكون إلا تلك الشخصية التي اختارت لنفسها رسالة لا تحيد عنها، رسالة الكاتبة والمعلمة الملتزمة والمناضلة في سبيل تحسين ظروف وطنها السياسية والاجتماعية، في سبيل إعلاء شأن المرأة، واليقظة الوطنية، والوعي الاجتماعي. ولكنها، منذ فقدته، التزمت اللون الأسود في ملبسها، كما ساد في قلبها، حيث لم يعد من مساحة للفرح. كان خيار الانغماس في الشأن الوطني والاجتماعي مناسباً في الحقبة الأولى، بعد رحيل الحبيب، ولكنه، في

الحقبات اللاحقة، تلك التي صفعتها بخيبات ما بعد الصراع، حفر فيها من الداخل هاوية لم تملك إلا أن تسقط فيها.

عندما أقول إنها لم تكتب عن بترو باولي، أعني أنها لم تفعل ذلك بأسلوب ذاتي، أسلوب المرأة التي تعبر عن ألمها لفقد من تحب. فقد دعيت مرة، بعد رحيل الأتراك، إلى حفل تأبين انتدبت فيه للحديث عنه. رافقناها أنا والآنسة فريدة، وجلسنا بين الحضور. عندما صعدت إلى المنبر وانطلق صوتها مجلياً، تمتمت الآنسة فريدة: «يا لقوة هذه المرأة!» كان في مقدمتها تأنيب واضح للموجودين. اليوم، بعد توالي التجارب المماثلة، لا يبدو كلامها إلا تقريراً مرّاً لما يحدث غالباً في مثل هذه الظروف، حين يغيب المدافعون عن الحق في وقت الحاجة، وتنطلق الأصوات ممجدة حين يزول الخطر ويغدو التكريم غنيمة للمكرِّمين.

«ما لي أراكم سادتي تحاولون نبش القبور وتبثون الأرواح في جثث من ساروا من الحي؟ ما لي أراكم تحولون القوائم إلى صولجان والنعوش إلى عروش؟ ما لي أرى من كنتم تخشون لفظ أسمائهم في عزلتكم تجهرون بنجواهم في مجتمعكم؟ ما لي أراكم تجودون بوصل حين لا ينفع الوصل؟»

ثم تحدثت عن معاناة خطيبها الشهيد في السجون السورية، ثم في بر الأناضول، عن الجوع والقهر في المنفى في قونيا ثم إزمير، عن مرضه، ثم عن إرجاعه إلى البلاد واقتياده إلى المحكمة العرفية في عاليه، عن البطولة التي أظهرها أمام حبل المشنقة. كانت قادرة على الإمساك بمشاعر سامعيها وتحريكها مع خطابها حيث شاءت. رأيت الجو ينقلب من الاستغراب والاستياء في بداية الكلمة إلى التأثر إلى حد أن دمعت أعين بعض الحاضرين فمسحوها خلسة.

«وكما يحتفل الفتى بزفافه، هكذا احتفل هذا الشهيد بمشنقته. فما دعي إلى ارتقائها حتى صاح بشركائه فيها: هلموا أيها الإخوان. إنها لأرجوحة الابطال، وأنت يا تركيا الشقية فحياتنا في ظلك ممات ومماتنا في ظلك حياة، فدونك إذاً هذه الروح التي أقمت منذ عامين تحومين حول نزعها بكل

ما لديك من وسائل الاضطهاد. وما عهد سقوطك حين تدوسك حوافر جياد المنتصرين ببعيد. وهنيئاً لمن يعيش فيرى الرجاء. وما أتم كلامه حتى أحاطت الحبلة برقبته فرفس الكرسي بقدميه وهو يردد: من لم يمت بالسيف مات بحبلة، وأظلمت في عينيه الحياة.»

تلك الكلمة ستنشرها في أول عدد من العروس بعد أن تعود إلى الصدور في تشرين الاول عام 1918. أبذل جهداً كبيراً وأنا أكتب اليوم لكي أقاوم رغبتي بالتنحي أمام كتاباتها وترك صوتها يصل مباشرة من دون تدخل مني. أبذل جهداً وأنا أراجع ما كتبت وأقارن أسلوبي العادي بأسلوبها المبدع، لكي لا أمحو كل ما أكتب، وأكتفي بنسخ مقاطع من مقالاتها وقصائدها.

ذات مساء، ونحن في طريق عودتنا إلى المنزل، سألتني الآنسة ماري: «هل أنت مسرور في المعهد؟» ارتبكت ولم أعرف بماذا أجيب، لأنني لم أكن قد طرحت هذا السؤال على نفسي من قبل. كنت أقوم بما عليّ أن أفعله كل يوم... أعادت صياغة السؤال: «هل تحب مهنة النجارة؟» ما كنت أعرفه هو أنني أعاني من الشعور بالقلق الدائم من عدم قدرتي على تأدية الفروض التي كان أستاذنا يطلبها منا. لم تكن إنجازاتي مرضية بالنسبة إليه، مع كل الجهود التي كنت أبذلها. قلت هذا للآنسة ماري، فتمتمت: «ربما ظلمناك حين سجلناك في المعهد الصناعي. أنت قارئ نهم، علينا أن نفتش لك عن طريق آخر. سأكلم خالك غداً.»

لم أفرح كثيراً بهذه الفكرة إذ كان كل تغيير جديد مصدر قلق بالنسبة إليّ. كانت ظروفي الحالية مقبولة بالمقارنة مع ما سبق وعشته، والأساتذة في المعهد أقل قسوة من أساتذة معهد عينطورة، ولكنني لم أجرؤ على مصارحة الآنسة ماري بمخاوفي.

أسفرت مشاوراتها مع خالي والاتصالات التي أجرياها بعدد من معارفهما عن تسجيلي في المدرسة الآسية الخاصة التابعة للبطريركية الأرثوذوكسية في باب توما. عرفت فيما بعد أن فارس الخوري، الذي كان صديقاً مقرباً للآنسة ماري، تدخل شخصياً لتستقبلني المدرسة بشكل مجّاني. كان مركزها قريباً من منزل الآنسة ماري.

صباح الأول من شهر نيسان من العام 1917، حضر خالي باكراً واصطحبني إليها، وفي الطريق، حدثني قائلاً:

«هذه فرصة رائعة بالنسبة إليك، فالمستوى التعليمي في هذه المدرسة عال جداً، وقد تخرج منها، منذ أن تأسست في العام 1840، الكثير من الرجال البارزين.»

لم يطمئنني هذا التقدير، ولكنني أردت أن أجاريه وأبدي بعض الاهتمام، فسألته:

«لماذا سموها الآسية؟ هل لأنها منتشرة في قارة آسية؟»

ضحك خالي وأجاب:

«كلا ليس لهذا السبب. حين أسسها القديس يوسف الدمشقي، كان في باحتها شجرة آس كبيرة، أي شجرة ريحان.»

شجرة الريحان تلك بددت بعض قلقي. في قريتنا كنا نسميها أيضاً حنبلاس. قرب بيتنا كانت هناك شجرة مثلها، توصينا أمي أن نبقى في ظلها حين تشتد حرارة الشمس، فنلعب تحتها بينما تداعب أنفنا رائحتها الزكية، ولنستزيد من عطرها، كنا نفرك أوراقها اللماعة بين كفينا ونشمها طويلاً. وكان عمي أنيس يقطع أغصانها اليابسة ويدهنها بالدبق ليتصيد بها العصافير، وأحياناً، كنا نأكل ثمارها البيضاء الصغيرة التي تحتوي على بذور صلبة. تلك البذور كانوا يدقونها ويمزجونها بالزيت ليمسحوا بها جلد المولود الجديد، وقد شهدت على هذه العملية حين ولدت وردة وشرحت لي أمي أن عبارة «مش تعبان بدق ريحانو» التي تعبر عن عدم الاهتمام جاءت من صعوبة طحن حبوب الريحان المخصصة للمولود.

لهذا، أقبلت على المدرسة التي سأمضي فيها سني دراستي بمحبة. وكانت الشجرة هناك بانتظاري. قد تكون حفيدة الشجرة الأولى التي تأسست المدرسة حولها.

كان عليّ، مجدداً، أن أدخل إلى عالم له سكانه الأصليون الذين حجزوا لأنفسهم فيه مواقع ثابتة لا مكان فيها للغريب. من جديد، كنت أنا الولد الغريب الذي ينظر الجميع إليه بفضول وربما ببعض العدائية، والذي يقف وحده في زاوية من الملعب بينما يسير الآخرون أو يلعبون جماعات. في تلك الأوقات، كان غضبي من خيانة آرام ورحيله ينتعش، فأحمّله وزر ما كنت عليه من الوحدة والغربة. ولكن المدرسة أذهلتني، سحرتني بمبناها الجميل، بالشجر والورود في الملعب، بصفوفها النظيفة، بالرهبان الطيبين الذين كانوا دائماً يطمئنون عن أحوالنا، وبشكل خاص، بأساتذتها، بثقافتهم وجديتهم وأدائهم المتميز، وباحترامهم التلاميذ. أقبلت على العلم بشغف سرعان ما لفت انتباه اساتذتي وفتح لي المجال لدخول دائرة التلامذة المجتهدين حيث استطعت أن أكوّن بعض الصداقات. تلك الصداقات بقيت محدودة، يحدها الفارق الكبير بيني وبين الأولاد الآخرين من الناحيتين العائلية والمادية، إذ كنت اليتيم الوحيد بينهم، وعلى ما أعتقد، الفقير الوحيد بينهم. ربما لم يكن ذلك ظاهراً في ملابسي، إذ حرصت الآنسة ماري، قبل أن أغادر منزلها مع بقية الأولاد الذين تم ايجاد حلول لسكنهم، أن تبتاع لي ثياباً جديدة تسمح لي بأن لا أخجل من مظهري. ولكن شيئاً ما جعلني أستمر بالشعور بالاختلاف: ثقة بالنفس لم أعد أملكها، ثقة لا تتبدى فقط في الملبس ولا بالكلام، بل في حركة الجسد، وفي النظرات، في تصرفات أولاد لا يرون تقدير الآخرين لهم أمراً حيوياً، ولا يبحثون دائماً عن موافقة الكبار أو أترابهم لكل حركة يقومون بها أو كلمة يتلفظون بها. وبالحديث عن الكلام، كانت اللهجة هي الحاجز الأول بين الآخرين وبيني. هذا الأمر الذي لم يشكل مشكلة فيما قبل بين الأولاد الأرمن والأشوريين، أصبح مدعاة للسخرية والتندر بين رفقائي في الصف. ولكن هذا المأزق لم يطل، إذ تبدد اهتمام الآخرين بلهجتي، أو ربما بدأت منذ ذلك الوقت بتغييرها، في البداية عن قصد، ثم بشكل طبيعي. لم تمض بضعة أشهر حتى أصبحت لهجتي تشبه لهجة أي ولد من أولاد دمشق، وبدأت أشعر بأنني مثلهم، ولدت وتربيت في أحياء تلك المدينة الجميلة.

كنت، مع نحو ثلاثين صبياً، تلميذاً داخلياً في المدرسة. كان الأولاد الآخرون يقيمون في المدرسة، إما لأن أهلهم مسافرون أو لأنهم من مناطق بعيدة. نتناول طعامنا في قاعة كبيرة ملاصقة للمطبخ، بعد أن يكون الرهبان قد انتهوا من الطعام، ونبيت في مبنى محاذٍ للمدرسة. لم تكن المدرسة مجهزة لإقامة تلامذة داخليين، ولكن ظروف الحرب تطلبت من إدارتها إجراءات استثنائية أفدت منها.

استمريت في زيارة مكتب المجلة مرة أو مرتين في الاسبوع لأساعد الآنسة فريدة والآنسة ماري في بعض الاعمال، ولكي أنهل من المكتبة ما يكفيني مؤونة ليلتين أو ثلاثاً.

ذات يوم، بينما كنت منهمكاً في القراءة، نادتني الآنسة ماري، فظننت في البدء أنها ستطلب مني، على عادتها، مساعدتها في ترتيب بعض الكتب أو الأوراق. ولكنني، عندما دخلت إلى مكتبها، وجدتها تقدم لي مغلفاً أبيض.

«رسالة لك»، قالت باسمة.

«أبي!» هتفت، فاختفت الابتسامة عن ثغر الآنسة ماري. لم أكن أعرف أنني ما زلت أنتظره... ولكن ظني لم يخب حين عرفت أن الرسالة من آرام. شكرت الآنسة ماري وحملت الرسالة إلى خارج المكتب لكي أقرأها بهدوء في الباحة. الرسالة باللغة العربية، بخطه الذي أتذكره جيداً إذ كنت، في أحيان كثيرة، في المعهد الصناعي، أستعين بما كتبه لأتمم واجباتي، فقد كان أسرع مني بالكتابة.

كان آرام يخبرني فيها عن حياته الجديدة وعن المعاملة الطيبة التي كان يلقاها من عمه وزوجته وعن محبته لرافي ابن عمه ذي السنوات الثلاث. قال إنهم يسكنون في حي السراسقة الراقي، حيث استأجر عمه أيضاً متجراً لخياطة البذلات الرجالية، وأنه تسجل في مدرسة الحكمة، كما كتب أن عمه ينوي معاودة البحث بهدف العثور على شقيقه وشقيقته. وأضاف: «كانت سعادتي ستكون كاملة لولا افتراقي عنك. آمل أن تسمح ظروفنا بلقاء قريب وإلى ذلك الحين، أتمنى أن نستمر بالمراسلة.»

في الرسالة لم يكن هناك أي ذكر للخدعة التي كانت سبب ما هو فيه. ربما يحاول أن ينساها ويلبس الدور الذي سرقه... أو ربما، ببساطة، لم يأت على ذكرها لأنه كتب الرسالة باللغة العربية التي لا يتقنها جيداً، وقد اضطر أن يطلب مساعدة ما لصياغة العبارات والتصحيح، فهي كانت خالية من الأخطاء. أما أنا، فكانت سعادتي لا توصف. قرأت الرسالة عشرات المرات. خبأتها، وما زلت أحتفظ بها إلى اليوم، بعد أن محا الوقت جزءاً من الحبر الذي كتبت به. تلك الرسالة كانت صلة وصل ليس فقط بيني وبين صديقي، بل بين مرحلتين من حياتي، فأكثر ما كان يخيفني هو الانقطاع التام بين حقبة وأخرى واختفاء الأماكن والأشخاص.

بعدها، بقيت رسائله تردني بشكل شبه منتظم، وكانت أخباره دائماً سارة، أخبرني في واحدة منها أن عمه باشر اتصالاته بالجمعيات الأرمنية لتساعده في البحث عن سوزي وفاهيه. ورحت أجيبه بكتابة رسالة في الأسبوع، أسلمها للآنسة ماري وهي توصلها بوساطة أحد المسافرين إلى بيروت، وفي أكثر الأحيان، مع حامل رسالة آرام نفسه. كانت بعض الرسائل، إلى أن وضعت الحرب أوزارها، تضيع في الطريق ولا تصل، فأسأل آرام سؤالاً لا يلقى جواباً وتبقى بعض الأفكار التي يطرحها من دون صدى.

لن أرى آرام مجدداً إلا بعد أن تنتهي الحرب...

لم أكن أعرف أن النهاية قد أصبحت وشيكة.

ديترويت 1972

أيقظني من نومي شدو طائر قريب. غفوت وأنا جالس، للمرة الأولى في حياتي، والكتاب المفتوح على ركبتيّ تساقطت فوقه أربع وريقات خضراء. غفوت ساعة على الأقل، ولكنني ما زلت متعباً. عليّ ان آكل شيئاً. أتوق إلى الغد. لن أمنح هذا الماضي أكثر من يومين من حياتي. غداً أعود إلى عائلتي وعملي وأنسى هذا الفاصل الأسود، كأنه فيلم سيئ شاهدته ومضى. هل أتمكن من ذلك؟ أليس عليّ أن ألجأ، كما العشرات ممن أعرفهم، إلى معالج نفسي يرشدني إلى طريق آمن للتصالح مع الماضي؟ هذه العادة أخذت بالرواج، وراح العديد من الأميركيين يفكرون أنه ليس بإمكانهم المضي في حياتهم من دون أن يتابع أفكارهم وذكرياتهم معالج نفسي... ولماذا أحتاج علاجاً؟ كل هذه القصة لن تدوم أكثر من يومين. سأتعامل معها مثل كتاب قرأته، قصة خرافية في بلاد قصية لا تمت إليّ بصلة. أما علاقتي بأبي... عرفت كيف أتعامل معها إلى اليوم، ولم تمنعني من أن أكون سعيداً... إلا في أيام العطل والأعياد، حين كنت أضطر، بعد إصرار والدتي وبروك، إلى القدوم للزيارة. وقبل ذلك ربما، في كل مناسبة كانت تجبرني على الاحتكاك بطبع والدي الصعب وأفكاره الغريبة. كان الأمر أكثر صعوبة في سن المراهقة حين كان صمته ونظرته يقولان خيبته في مواجهة كل خياراتي وما كنت أراه إنجازاً، وما كان يشكل مصدر فرح وفخر بالنسبة إلي. في أحيان قليلة، كانت الخيبة تجد ترجمتها في تصرفات تعبر عن غضبه كأن يصفق الباب خلفه أو أن يضرب المنفضة ضربة عنيفة قد تحطمها، أو يرفع صوت الفونوغراف مستمعاً إلى تلك الأغاني العربية التي

كانت تصيبني بالكآبة... ثم يمسك كتاباً ويغيب عنا... مؤدياً تلك الحركة التي وصفها يوحنا، يضع يده فوق عينيه كأنه يريد أن ينفصل عما يحيط به. ولكنّ يوحنا قال إن عمه انيس هو الذي كان يفعل ذلك. هل تكون هذه الحركة متوارثة في عائلتهم؟

أذكر تلك الحفلة الساهرة التي أقمتها خلال سفرة قام بها والداي إلى كندا، ولكنهما عادا قبل الوقت المحدد لأن والدتي أصيبت بوعكة صحية. فتحا الباب وكانت الموسيقى تصدح في أرجاء المنزل ورفاقي في كل مكان وزجاجات البيرة الفارغة مرمية عند المدخل. أذكر أن الاصفرار الذي علا وجه أمي كان يحاكي اصفرار الغضب على وجه أبي. اقترب مني وسألني: «كيف تقيم حفلة في غيابنا؟» فأجبته بغضب: «لأنكم لا تسمحون لي بإقامتها. أنا أفعل ما يقوم به كل رفاقي بشكل عادي.» لم يجبني، إذ فاجأه أحد أصدقائي المخمورين بأن تأبط ذراعه وهو يغني، محاولاً أن يصطحبه إلى باحة الرقص. تخلص منه بغضب وتوجه إلى المسجل وحاول إطفاءه، وحين لم يفلح في ايجاد الزر المناسب، سحب الشريط، فانقلب المسجل على الأرض وسط اعتراضات الراقصين المترنحين. ثم صرخ والدي بصوته الجهوري معلناً انتهاء الحفل وداعياً الجميع إلى المغادرة. كنت في السادسة عشرة من عمري وكان شعور الخجل من تصرف والدي أمام رفاقي يحاكي المأساة، كنت مراهقاً وكان عالمي موسوماً بآراء رفاقي في المدرسة والأحكام التي يطلقونها، يبدأ وينتهي عند حدود الملعب. اليوم أعرف أنني بالغت، إذ أن الأمر لم يزعج رفاقي كثيراً، وأكثرهم نسي ما جرى أو حتى لم يتنبه له، ولكنني يومذاك شعرت أن والدي حطم كل ما كنت أصبو إليه، يومها، كان همي ينحصر في إثبات موقعي بين رفاقي وفي الحصول على إعجاب إميلي الشقراء التي كنت مغرماً بها. عزوت ابتعاد إميلي عني في الأيام التي تلت إلى ازدرائها لي بسبب ما جرى. لم يحسن كل ذلك علاقتي بأبي التي ما انفكت تسوء يوماً بعد يوم. وهو لم يبذل الكثير من الجهد ليغير مسارها. أفهم الآن لماذا. لأنه يفتقر إلى عاطفة الأبوة. ربما كان إنجابه لي خطأ او ربما لحظة ضعف أمام إصرار أمي. لحظة قد يكون ندم عليها. ربما كان اليوم الذي عرف فيه قراري باختيار تدريس الرياضة مجالاً لإكمال

دراستي هو نقطة افتراق أحلامنا ومن ثم مساراتنا...كانت له، منذ طفولتي، خطط تتلخص بكلمات ثلاث، متدرجة في الأفضلية وفق الترتيب الآتي: طب، محاماة، هندسة.

كان لي ملاذ من جو المنزل الخانق: منزل جديّ دان وآني، والديّ أمي. دان وآني كانا يشبهانني، يفهمانني، يتحاوران معي في الشؤون التي تعنيني: الفوتبال، أصدقائي، المجلات المصورة... يدللانني ولا يبخلان عليّ بشيء، يطهوان ما يعجبني من الطعام، ويصطحبانني إلى المطاعم التي أحبها. وكان جدي يأخذني في رحلات صيد جميلة، صيد سمك أو صيد عصافير، وقد سمح لي بأن أقتني ما شئت من الحيوانات الأليفة: كلباً وهرة وسلحفات، وحتى أرنباً في وقت من الأوقات... بينما كان وجود الحيوانات ممنوعاً بشكل قاطع في منزل والدي لأنها، كما كان يدّعي، «مصدر للجراثيم والأوساخ والمصاريف التي لا مسوغ لها». جدي اشترى لي دراجتي الأولى وعلمني ركوبها، ثم أصبح هذا تقليداً لدينا، إذ كان يبتاع لي كل الدراجات الأخرى التي كانت تناسب سني، نتناقش طويلاً في نوعها ولونها وشكلها، ثم نذهب إلى المتجر في يوم ميلادي ونبتاعها. كانا يسكنان على بعد شارعين منا، وغالباً ما كنت أمضي عطلة نهاية الاسبوع برفقتهما، وحين أصبح الوقت ملائماً، اصطحبت أول صديقة لي إلى منزلهما، فاستقبلاها بترحاب، وتركا بعدها المنزل وغادرا إلى نادي الغولف، لنخوض تجربتنا الاولى بحرية. لم يتلفظا يوماً بكلمة واحدة مسيئة بحق أبي، ولكنني كنت أعرف أنه لا يروق لهما؛ كانا دائماً متحفظين في حضوره، قليلي الكلام والمزاح، ولا ينطلقان على سجيتهما المحببة إلا عندما يغيب.

مات جدي بعد أن غادرت إلى الجامعة بشهرين، كأنه أتم مهمته وأوصلني إلى عالم الراشدين بأمان. بعدها، أصبحت جدتي غارقة في حزن دائم وفي أمراض لا تحصى، ثم بدأت تنسى أبسط الأشياء. كانت تقيم في منزل للمسنين حيث كنت أزورها فور عودتي من الجامعة، ولكنها، في بعض الزيارات، لم تكن تتذكرني. ماتت بعد سنتين من موت جدي.

حين كنت في الرابعة عشرة من عمري، بدأ والدي يغيب عن المنزل يومين كل شهر، بشكل منتظم. وأمي عودتني على العبارة التي كانت تشرح بها سبباً أقنعني عندما كنت صغيراً وساورتني الشكوك حوله فيما بعد: «يسافر من أجل عمله.» تساءلت عندما كبرت إن كانت هي نفسها مقتنعة بذلك العذر. أية أعمال هذه التي يقوم بها محاسب صغير في معمل فورد يمارس الترجمة في أوقات فراغه؟ هل كان يخونها؟ لا أستبعد ذلك. كم اشفق على أمي اليوم، وكم غضبت منها بالأمس! تأكدت شكوكي ذات مساء، إذ مررت بمكتبه فوجدته يكتب، كعادته، ثم نادتنا أمي لنساعدها في إعداد الطاولة، فامتثلنا. وعندما جلسنا إلى المائدة، قال إنه نسي أن يأخذ دواء الضغط وطلب مني أن أجلبه من درج مكتبه. نهضت وقد تعمدت إظهار امتعاضي، كما كنت أفعل في كل مرة يتوجه إلي بطلب. وحين اقتربت من المكتب، وانحنيت لأفتح الدرج، أصبحت الأوراق التي كان يكتب عليها أمام وجهي تماماً، كانت هناك، على الورقة الأولى، قصيدة بالعربية لم تكتمل بعد، قرأت ابياتها الأولى فإذا بها قصيدة حب لامرأة تدعى عليا، يصف عينيها السوداوين وشعرها الأسود المعقود في ضفيرة... عدت إلى غرفة الطعام من دون الدواء، ولم أعبأ بتأنيب أبي ولا باستغراب أمي. كنت أرسم في رأسي فصول خيانته: تلك الايام التي كان يتغيب خلالها عنا، كان يذهب فيها للقاء تلك المرأة، عليا. كنت في الرابعة عشرة من عمري وأخذت قراراً بألا أكون أبداً مثل أبي وان أبقى مخلصاً لزوجتي. سألت أمي في اليوم التالي:

«هل تعرفين فعلاً إلى أين يذهب أبي عندما يغيب عن المنزل؟»

أجابتني كعادتها بدرس له هدف تربوي:

«لكل إنسان الحق في أن تكون له مساحته الخصوصية التي لا يطأها غيره.»

أحسست بالضيق من سذاجتها، فقلت من دون تفكير:

«وماذا لو كان يذهب لملاقاة امرأة أخرى؟»

مثل البرق امتدت يدها وصفعتني.

«أمنعك من التلفظ بمثل هذا الكلام.»

كانت المرة الأولى التي تضربني فيها. والأخيرة. لم أغفر لها بسهولة، وكانت النتيجة أنني قررت أن أتركها تواجه المصير الذي ارتضته لنفسها من دون أن أتدخل. وتكفلت السنوات التالية في محو الخيبة وألم الصفعة من ذاكرتي.

كل هذا لا يعني أنني غرقت في غضبي وأمضيت شبابي أتساءل عن تلك الخيانة. حصل معي ما يحصل مع كل الشبان: أخذتني اهتماماتي، الرياضية منها على وجه الخصوص، ومن بعدها، مغامراتي النسائية، فاستحوذ الجنس على تفكيري لسنين طويلة، ثم جاءت علاقات الحب، وشيئاً فشيئاً، تراخت الروابط التي كانت تجمعني بوالديّ، وتباعدت أحاديثنا، وحين غادرت إلى الجامعة، لم تعد قصصهما تعنيني بشكل مباشر. أردت فقط أن أتمكن من أن أجني المال لأستطيع أن أدفع مصاريفي، ومن بعدها اقساط جامعتي. عملت ودرست كثيراً حتى تمكنت من الحصول على استقلالي المادي.

قادم من زمن المجاعة

يقولون إن الحرب قد انتهت وإن العثمانيين الذين انهزموا سيغادرون، وفي قلبي أمل لا يجرؤ على الانبثاق. أمل موجع أتهرب منه خوفاً من خيبة أخرى. ترى كيف تكون الحياة من دون حرب؟ كيف كانت قبل؟ كيف تكون من دون انكشاريين يفرضون هيمنتهم؟ ومن دون خوف من عودة المجاعة؟ هل نصبح بلاداً حرة لا هم لها سوى العمل لنهضة اقتصادية واجتماعية وثقافية؟ صورت لي الآنسة ماري الوطن كما يجب أن يكون، وأحببت هذه الصورة، وحملتها في فكري، حتى تماهيت معها، ولم أعد قادراً، فيما بعد، أن أفصل عنها أي شأن من شؤون حياتي.

كان قلب الآنسة ماري وكلامها يطفحان بالأمل بمستقبل مشرق. كانت طاقة هائلة تحركها وتجعلها تضاعف من نشاطها الثقافي والتعليمي. «لا وقت للراحة. هناك نهضة قادمة يجب أن نحضر حامليها.» هذا ما كانت ترددده وما نجحت في أن تبثه بين تلميذاتها وزميلاتها وشركائها في الأندية الأدبية. هل تأخر التحضير حتى باغتت المتغيرات جيلاً كان ما زال يحمل تبعات سنين من الاحتلال الذي بدا له مؤبداً؟

إن أسوأ الحقبات هي التي تلي التغيرات الكبرى التي ترفع الآمال عالياً ثم تطيح بها، ولا يأتي الفرج المنتظر.

تفرق شملنا بعد أن غادرنا منزل الآنسة ماري، وانتقلت إلى المدرسة الآسية التي استقبلتني مع عدد من الفتيان الآخرين طالباً داخلياً، نبيت في مبنى ملاصق لمبنى المدرسة.

في الأشهر الأولى، كانت الدراسة أجمل ما حصل لي بعد كل تلك التغييرات التي طرأت على حياتي منذ اندلاع الحرب، فانهمكت في تعلم كل ما فاتني، بمساعدة الآنسة ماري والآنسة فريدة، حتى تمكنت من أن ألحق برفقائي الذين كانوا متقدمين عليّ في كل المواد. لم أبال بوحدتي، ولم أسع لبناء صداقات. ربما كنت، في البداية أخاف من كل صداقة جديدة، أخاف أولاً أن تظهر ظروفي الصعبة أمام الأولاد الآخرين، إذ لم يكن لديّ أي من تلك المقومات التي يتمتعون بها من دون أن يدركوا ذلك. لا أهل، ولا مال ولا بيت آوي إليه في العطل، فكنت أبقى وحدي في المدرسة بعد أن ينصرف الآخرون... ربما أيضاً، وهذا ما لم أدركه في حينه، كنت أخاف أن أنسج علاقات لا ألبث أن أفقدها، كما حدث لي من قبل. التحقت بالمدرسة في فصل الربيع، وبقيت فيها وحدي خلال العطلة الصيفية. كنت أمضي أيامي في القراءة وفي إنجاز الفروض التي كانت تعطيني إياها معلمتاي، وأذهب إلى مركز المجلة لأمضي برفقتهما ورفقة اصدقائهما فترة بعد الظهر، حتى المساء. أتناول عشاء خفيفاً ترسله لي الآنسة إيلين مع الخادمة جيهان، وأعود بعدها إلى المدرسة، فيفتح لي الناطور الباب، وأدخل إلى الباحة المقفرة، ثم إلى القاعة الخالية، والغرفة التي أصبحت لي وحدي، بينما كنت أتقاسمها خلال العام الدراسي مع تلميذين آخرين.

كانت أصداء الثورة العربية الكبرى تصل إليّ من خلال الأحاديث التي كنت أسمعها في مكتب المجلة حيث كان يجتمع عدد من المثقفين ليناقشوا بعض الكتب، فيبدأ الحديث، بانتظار اكتمال نصاب المشاركين بعرض للأحوال العامة في البلاد، وخصوصاً أخبار الثورة والملك فيصل والشريف حسين، فينتشر في جو الغرفة حماس يبث حرارة في النقاش الذي لا يعود يشبه الأحاديث الهادئة إذ ينتظر كل من المتحاورين دوره في الكلام، فتتقاطع العبارات وترتفع الأصوات، خصوصاً عندما يحاول واحد من الموجودين أن يطرح تساؤلاً ما، كأن يشكك في نوايا بريطانيا المتحالفة مع الثوار، أو كأن يأتي على ذكر مراسلات الشريف حسين وماكماهون واتفاقية سايكس- بيكو ووعد بلفور أو كأن يدلي بمعلومة تهدد بالتشاؤم، مثل خبر تجنيد فرقة عسكرية يهودية مستقلة مؤلفة من خمسة آلاف جندي يهودي

ليشتركوا مع الجيش البريطاني في غزو فلسطين واحتلالها... أنا أيضاً كنت أنظر شزراً إلى أولئك المتشائمين وأتمنى أن ينقطعوا عن زيارة المجلس حتى لا يعكروا نشوة الانتصار التي كانت تتمدد من رؤوسنا حتى أجسادنا، فتعمل فيها ما يشبه فعل المخدر. شعور يشبه شعور الحب حين يكون الوله في أعلى درجاته، يشبه ما سأشعر به لاحقاً في قصة حبي المدمرة.

نفس الشعور دفعنا نحو الساحة لنستقبل الأمير فيصل وقوات الجيش العربي، جعلنا نسير من دون أن تطأ أرجلنا الأرض كأننا محمولون على غيمة، نهتف لحياة الأمير وللثورة المنتصرة، نلوح بالأعلام من دون كلل، نرى العساكر يسيرون والخيالة يمتطون الأحصنة الجميلة كأننا في حلم، نقف على رؤوس أصابعنا لكي نحظى برؤية الأمير الأسمر على جواده الأبيض...

قبل يومين، في 29 أيلول 1918، كان الأميرفيصل قد شكل قيادته في درعا واعطى أوامره بالتقدم إلى دمشق، فوصل إلى مشارفها في منتصف ليلة 30 أيلول. لم تنم المدينة في تلك الليلة. سمحوا لي في المدرسة أن أبيت عند الآنسة ماري. لم يغمض جفن لأي منا. كان هناك من يحمل لنا الأخبار المستجدة، ونحن نهلل ونحضر الزينة التي سنعلقها في الصباح الباكر في الشوارع، نقصّ الورق الملون ونربطه بخيط طويل. وعلى كل الألسن عبارة تتردد، كأننا إذا قلناها أكثر، نجحنا في أن نصدق أنها ليست حلماً: «أربعة قرون من الاحتلال العثماني قد انتهت.»

في مساء اليوم التالي، حين شاهدنا العلم العربي وقد رفعته مجموعة من جنود الثورة العربية على مبنى البلدية، تيقنّا أن الحلم قد تحقق.

ولكننا، يوم وقفنا نشاهد دخول الجيوش العربية إلى دمشق، عجزنا عن إدراك التفاصيل الصغيرة المخفية وراء عظمة الاحتفال وسحر القائد الجديد، عجزنا عن رؤية لورانس الداخل برفقته، لورانس الذي سيقتلع بعد أيام قليلة الإكليل الذهبي المقدم من الأمبراطور غليوم الثاني عن قبر صلاح الدين الأيوبي، ويهديه فيما بعد إلى متحف بريطاني... عجزنا عن رؤية

البريطانيين وهم يدخلون دمشق في اليوم نفسه، من الجهة الغربية، بقيادة الجنرال اللمبي الذي نزل في فندق فيكتوريا...

إن كان صغر سني يعفيني من الشعور بالغباء لعدم إدراكي ما كان يحاك لنا، لا شيء استطاع أن يعفي الآخرين الذين منعتهم نشوة النصر من الرؤية الجلية. على الأقل من أعرفهم، منهم الآنسة ماري التي ما فتئت تردد: «كيف استطاعوا أن يخدعونا؟ كيف فرحنا وهللنا ولم نر أياً من ألاعيبهم؟»

سحرها الأمير فيصل، الذي اصبح فيما بعد ملكاً على سورية والعراق، كما سحر الآلاف غيرها. لأول مرة، كان لهؤلاء الناس قائد يثقون به ويحمّلونه مخاوفهم وآمالهم، ويلقون على أكتافه ما لم تقو أكتافهم التي أثقلها الاحتلال على حمله. سوف تمضي سنين طويلة قبل أن يدركوا أن وحدها المؤسسات تضمن سلامة الوطن الدائمة... ربما لن يدركوا أبداً، وسيظلون أبداً يبحثون عن قائد، عن أب. وسيظلون قطعاناً خائفة تتجمع، تحت إمرة راع، في مجموعات تقيها شر الآخر، من ألبسوه ثوب الآخر ليسهل التقسيم ولتنزرع الفرقة في النفوس فتنبت غرساً قوياً يصعب اقتلاعه.

كتبت ماري العجمي عن زيارتها للأمير في مقال في مجلة العروس ظهر فيه الإعجاب الكبير الذي كانت تكنه له من قبل، والذي ترسخ خلال تلك الزيارة. وقد تجلت السعادة التي غمرتها وصفاً للطبيعة المحيطة ولحديقة المقر كما لو أنها مدخل للجنة. أما الأمير فكان له في كتابتها وصف يشبه وصف العاشق للمعشوق، فكل ما في مظهره يعكس شخصية مميزة، من قامته الهيفاء إلى ابتسامته الدافئة. ولكن السحر الحقيقي فعل فعله حين بدأ بالكلام وراح يحدثها في أمور طربت لها أذنها واختلجت نفسها.

هل يعقل أنهم وصلوا أخيراً، برفقة هذا القائد إلى البر الذي يستطيعون بناء مجتمعهم عليه؟ هل تتنحى العواصف وتهدأ الأعاصير فتتجه جهود الجميع نحو النهضة المنتظرة؟ كان حديث الأمير يوحي بكل ذلك... من

إيمانه بالنهضة النسائية إلى عرضه لغرض الأدب ودوره، مواضيع طرحها وطربت لها أذن الآنسة ماري. كتبت:

«افتتح الكلام بتنشيطي للخدمة الأدبية، وسألني البحث في الأخلاقيات خاصة، فلم تغب عني ملاحظة سموه لأن ما من أحد إلا ويلحظ صغر النفوس الذي أورثنا إياه الحكم التركي.»

كيف لمن يرتفع إلى أعلى قمم الإيمان والزهو ثم يُدفع دفعاً إلى القعر أن لا يتقوقع على نفسه رافضاً مغادرة هذا القاع مجدداً خوفاً من سقطة أخرى؟ كيف يحافظ المؤمن على إيمانه وطاقته حين يُرسَم له خط حياة يتراوح بين الثقة المطلقة والخيبة القاتلة؟

كنا يومها في أعلى القمة ولم نكن نظن أن الطريق المنحدر ما زال مفتوحاً أمامنا. كان تتويج المرحلة بالنسبة إليّ هو إعلان الآنسة ماري أنها ستستأنف إصدار المجلة بعد انقطاع دام أربعة أعوام، وأضافت أنها ستستحصل من إدارة المدرسة الآسية على إذن لي بمساعدتها في المساء في وظيفة بدوام جزئي، فأتقاضى أجراً يساعدني على دفع مصاريفي، ويكون تدريباً لي على العمل الصحفي. وهكذا كان.

في ذلك الوقت كان لدينا شعور راسخ أن كل ما يحصل لنا خاضع لإرادتنا المجردة. هذه واحدة من إشارات الزمن المنتصر.

في غمرة انشغالنا بالتحضير لصدور العدد الأول، وصلتني رسالة من آرام يخبرني فيها أن عمه قادم إلى دمشق ليتابع موضوع شقيقته وأنه يطلب مساعدة الآنسة ماري. رحبت الأخيرة بالفكرة على الرغم من العمل المتراكم الذي لم يكن يعطيها فرصة تناول الطعام، إذ كنا نلتهم على عجالة، وقوفاً، ما تجلبه لنا جيهان من دون أن نعرف نوع الطبق. وعندما وصل عم آرام استقبلته بحفاوة وساعدته على الاتصال بجمعيات كانت تعنى بالبحث عن أطفال الأرمن الضائعين. لم تكن معلومات السيد بوغوس كافية. كانت كلها مستقاة من أخبار آرام الثاني الذي قرأها في قصاصات الورق التي دسها آرام الأول في تجويفة الشجرة في معهد عينطورة.

كان عم آرام يقيم في فندق قريب، ويزورنا كل يوم صباحاً في المجلة، يأخذ التعليمات من الآنسة ماري، يقوم ببعض الاتصالات، ثم يغادر. وكان يعود أحياناً في فترة بعد الظهر ويدعوني لمرافقته في نزهة صغيرة في الأحياء المجاورة، أو لتناول بعض المثلجات في أحد المقاهي. كنت أحاول أن أتهرب من تلك النزهات، لأن شعوراً بالإحراج كان يغمرني حين يبدأ بالحديث عن آرام، عن مدرسته، عن الجهود التي يبذلها هو وزوجته لكي يعيش في جو عائلي مريح ينسيه بعض معاناته، عن الأمل في إيجاد سوزي وفاهيه. لم أكن أنجح في رفض دعواته لأنه كان يصر، وكانت الآنسة ماري تسانده حاثة إياي على الذهاب معه.

كنت أضطرب وأشعر براحتيّ يديّ تتعرقان وبحمرة الخجل تصبغ وجنتيّ، والسيد بوغوس يبتسم لي بطيبة ويقول إنه يكن لي الكثير من المحبة لأنني صديق آرام ولأن الواحد منا حافظ على حياة الآخر، وأنا أشعر أنني أرتكب خطيئة ما، وأنني أساهم في خداع هذا الرجل الطيب... وأخيراً قرر العودة إلى بيروت لأنه كان قد قام بكل الاتصالات الممكنة وزار كل الجمعيات المعنية بإيجاد أولاد الأرمن وإعادتهم إلى ذويهم. وطلب من الآنسة ماري متابعة البحث، والاتصال به فور ورود أي خبر جديد.

لم يجدوا فاهيه أبداً، ولكنهم وجدوا سوزي. وجدها الصليب الأحمر الأميركي، وكان يتحضر لأخذها مع عدد من الأولاد الآخرين، إلى ميتم في إيطاليا. كان اسمها قد أصبح سوسن وكانت تحمل وشماً صغيراً على ذقنها.

عندما رأيتها، داخلة من الباب وهي تمسك بيد الآنسة ماري، خيل إليّ أنني أرى وردة. كان لها نفس الشعر الأسود الأملس المعقود في جديلة صغيرة تنتهي بشريطة بيضاء، ونفس العينين السوداوين الواسعتين، والفم الزهري الصغير، وخيل إليّ أن الثوب الأصفر المقطع بالأبيض الذي كانت ترتديه هو نفسه الذي اشترت أمي قماشه من خضر البائع المتجول وخاطته لوردة لكي ترتديه في عيد الفصح. كانت تبكي، وكانت كتفاها الصغيرتان تهتزان تحت تأثير ارتجافة متواصلة. ركعت أمامها وأمسكت بيدها الصغيرة الباردة، فنظرت إليّ بعينيها الواسعتين المليئتين بالدموع وقالت بلهجة

بدوية: «أريد أمي.» أجلستها الآنسة ماري على الكنبة وسألتها: «أتفضلين شراب الورد أم قطعة من الشوكولا؟» توقفت في لحظتها عن البكاء وأجابت: «شوكولاطة!» فغرقنا أنا والآنسة ماري في الضحك.

بينما كانت سوسن تتواسى بتناول قطعة الشوكولا، راحت الآنسة ماري تروي لي قصتها، منذ أن سلمتها والدتها إلى البدوية قرب دير الزور لكي تنجو من الموت على الطرقات، فأخذتها هذه الأخيرة وربتها مع أولادها كأنها واحدة منهم، إلى أن وجدتها جمعية أميركية كانت تبحث عن الأطفال الأرمن الضائعين وتعرض مبلغاً من المال لكل من يعطيها معلومات عنهم. أغرى المال البدوية التي سلمت لهم سوزي مفصحة عن اسمها الحقيقي الذي كان قد تحول إلى سوسن، بعدها سلمت الجمعية سوزي إلى الصليب الأحمر الأميركي، وكان اسم السيد بوغوس مسجلاً لديهم، وكذلك رقم هاتف الآنسة ماري وعنوانها. أما فاهيه، فلم يستطيعوا أن يعرفوا عنه شيئاً.

اتصلت الآنسة ماري فوراً بالسيد بوغوس، فردت عليها زوجته التي تلقت نبأ العثور على سوزي بفرح بالغ، ولكنها قالت إن زوجها مسافر إلى فرنسا ليشتري من هناك شحنة من القماش، وأنه لن يعود قبل أسبوعين، فطمأنتها الآنسة ماري قائلة إنها ستعتني بالطفلة إلى حين عودة عمها من السفر وحضوره إلى دمشق ليصطحبها. وبقيت سوسن عند الآنسة ماري حيث أحاطتها سيدتا المنزل، بالإضافة إلى جيهان، بعناية فائقة. قالت الآنسة ماري إنه من الأفضل أن نبقي على اسم سوسن الذي اعتادت عليه لكي لا نزيد من شعورها بالغربة، وهكذا كان.

كنت أستيقظ باكراً كل يوم وأغادر غرفتي في المدرسة مسرعاً وأتوجه إلى منزل الآنسة ماري لأرى سوسن عندما تستيقظ وأقدم لها طعام الفطور، فقد كانت ترفض أن تتناول أي طعام إن لم أكن موجوداً، إذ كنت ألاعبها وأضحكها وأخبرها قصصاً حفظتها من أمي وجدتي، وأشعر بحنان غريب يتدفق بغزارة داخل صدري وأنا أطعم تلك الفتاة الصغيرة ذات السنوات السبع، فلا أكاد أقوى على تركها للذهاب إلى مكتب المجلة برفقة الآنسة ماري. وعندما أعود في وقت الغداء، كان وجهها الصغير يتلألأ فرحاً

وتركض لتستقبلني، فأعطيها طابة او دمية ابتعتها لها من مصروفي وأمضي الوقت برفقتها حتى تنتهي استراحة الغذاء، أقفل بعدها عائداً إلى المكتب، حيث أعد الساعات بانتظار وقت المغادرة في المساء. في قلبي تفتحت المحبة كما نبتت البراعم على أغصان الأشجار في بلادي بعد انقضاء زمن القحط. ولكن سوسن الصغيرة بقيت تطالب برؤية أمها البدوية بخجل ولكن بإصرار. فيما بعد، سترفض أن تقول «ماما» لزوجة عمها، وستناديها ب «خالتي» على الرغم من إصرار خالها وزوجته، وستبقى سوسن من دون أم. لم أكلمها يوماً عن فقدها هذا. خطيئة.

مضى الأسبوعان بسرعة سحرية، وعندما اتصل السيد بوغوس ليخبرنا أنه عاد للتو من فرنسا، وأنه سيسافر إلى دمشق في اليوم التالي، انطفأ ضوء في قلبي وشعرت بالندم لسماحي لتلك الفتاة الصغيرة بالتغلغل داخل مشاعري معرضة إياي لشعور الفقدان مجدداً. أما هي، فحين أخبرتها الآنسة ماري أن عمها سيأتي لاصطحابها إلى منزله في بيروت، راحت تبكي وتقول: «أريد ان أبقى مع يوحنا.» ولم تنجح محاولات الآنسات الثلاث في إقناعها أنها ستكون سعيدة إلى جانب شقيقها وعائلة عمها. كانت كل تلك المتغيرات مخيفة جداً بالنسبة إلى فتاة في مثل سنها وكان قلبي يتمزق حزناً لرؤية الدموع التي كانت تتجمع في عينيها الواسعتين قبل أن تنهمر بصمت على وجنتيها.

عندما وصل عمها في مساء اليوم التالي، رفضت أن تنظر إليه وخبأت وجهها بين يديها الصغيرتين وراحت تردد: «لا اريد ان أذهب معك. أريد يوحنا.» شرحت الآنسة ماري للسيد بوغوس ما يحصل، فنظر إليها ملياً، ثم قال: «ربما حان الوقت لكي أفي بوعدي ليوحنا. إن سمحتِ، سأصطحبه معنا ليزورنا ويرى آرام في بيروت. وهكذا نكون قد وفرنا على سوسن بعض الحزن وأفرحنا الصديقين اللذين طال فراقهما.» هل سمعت حقاً ما قال، أم أنني أتوهم؟ للحظة خفت أن تعارض الآنسة ماري هذا المشروع، ولكن نظرة مني إلى وجهها الباسم، أكدت لي أنها فرحة لفرحي. قالت إنها ستكلم خالي ليسمح لي بقضاء شهر من العطلة الصيفية في بيروت. للمرة الأولى

منذ أن أطلت المجاعة على حياتي، ثم توالت عليّ المصائب، شعرت بسعادة مطلقة، لا تشوبها شائبة.

كانت المرة الأولى التي أسافر فيها بالقطار. وكنت أتنقل في حلم. لم أنزع وجهي عن زجاج النافذة إلا لأتناول بعض الطعام وأطعم سوسن وأتمشى قليلا برفقة السيد بوغوس خلال الاستراحات. حين غادرت لبنان، كان القحط المتولد من غزو الجراد قد قضى على كل المعالم الطبيعية على الجبال وفي السهل، وها أنا أعود اليوم وقد اكتست حلة خضراء يانعة تنعش روح الناظر. عندما ترجلنا عند محطة رياق وراح السيد بوغوس يشرح لي، كما في كل محطة، نبذة عن تاريخ القطار والمنطقة وجغرافياتها، بينما كنت أستمع إليه وأنا شارد الذهن، أتنقل بافكاري بين الماضي والمستقبل، جاءت على لسانه كلمة أيقظتني من شرودي: «أبلح».

«ماذا قلت؟ لم أنتبه جيداً.»

«قلت إن البلدة المحاذية لرياق هي أبلح...»

حانت من قلبي التفاتة إلى حبي الأول، زينة الجميلة التي حملت شقيقها على ظهرها وتبعت عائلة عمها إلى أبلح في سهل البقاع. هل تمكنت من النجاة من المجاعة؟ هل يمكن أن أسمع خبراً عنها في يوم من الأيام؟ كأن نهاية الحرب كانت تسمح بتفتح مشاعر كانت قد ذوت في فكري الذي لم يكن ينشغل قبل ذلك إلا في كيفية البقاء على قيد الحياة. تذكرت أيضاً أن أمي من هنا... هل سأقوى يوماً على البحث عمن بقي من عائلتها، من عائلتي؟ هل سأقوى على لملمة أشلاء تاريخي؟

انطلقت صفارة القطار القوية، فعدت برفقة السيد بوغوس وسوسن إلى مقاعدنا استعداداً للانطلاق. تلك الصفارة رافقت مراحل نمو حبي. في كل مرة كنت أركب القطار متوجهاً إلى بيروت بقلب يلتهب شوقاً إلى ذلك الحي الهادئ، إلى الدرج وشجر الجميز، إلى الحديقة الجميلة حيث أدركت للمرة الأولى، بعد مرور سنين طويلة، أن ذلك الحريق الجميل في أحشائي

وذلك التوهج في وجهي وعيني، ذلك التألق في حديثي وأفكاري وحركتي، توهج يتبعه سكون يشبه الموت حين تكون غائبة، هو الغرام.

الرحلة الأولى كانت موسومة بالفرح. صديق أقرب إليّ من الشقيق ينتظرني، طفلة تشبه شقيقتي تتعلق بثيابي وترفض أن تبتعد عني، سيدة ترعاني بحنان الأم تنتظرني لأعود وخال يسأل عن أخباري من وقت إلى آخر. كانت مفاجأة رائعة تنتظرني عند المحطة في منطقة المعلقة. نزلت من القطار لأتمشى قليلاً، فإذا بصوت يناديني... صوت أعرفه. نظرت إلى المصدر: «آرام!» هل يعقل؟ ركضت صوبه وتعانقنا كما يتعانق الصبية، بشيء من الارتباك.

«كيف جئت؟»

«استقليت حافلة. حين أخبرني عمي أنك قادم، لم أستطع الانتظار. طلبت الإذن من زوجة عمي وجئت برفقة عبدالله الذي يساعدنا في محل الخياطة وانتظرنا.»

لم يبد السيد بوغوس مسروراً جداً بالقرار الذي اتخذه آرام، ولكنه لم يقل شيئاً.

«متى وصلتم؟» سأل.

«منذ قليل،» أجاب آرام.

«منذ أربع ساعات،» أجاب عبدالله.

أربع ساعات من الانتظار تحت أشعة الشمس الحارقة بعد رحلة مضنية في الحافلة. هذه هي الصداقة الحقيقية، تلك التي ملأت فراغ قلبين غادرهما كل الأحبة.

شددته من يده ليتنبه لوجود سوسن التي كانت تقف وراء السيد بوغوس تنظر باستغراب إلى مشهد اللقاء، فانحنى صوبها، قائلاً: «أهلاً سوسن! أنا آرام شقيقك.» ترددت ونظرت إليّ، فابتسمت مشجعاً، فقربت

فمها من وجنته وطبعت عليه قبلة رقيقة. كانت البداية مشجعة. لم لا تنطلق الحياة في المسار الذي أردناه، وتستمر منصاعة لأمانينا، راسمة خطاً من الفرح والمحبة؟ لم لا ننسى أن كل ذلك بني على كذبة اختلقها ولد يتوق إلى حياة عائلية طبيعية؟ لم لا نثق بحقنا في السعادة؟ خلال الرحلة إلى بيروت وشهر العطلة الصيفية، بدا لنا كل شيء ممكناً. كنا صغاراً.

ستعيش سوسن سعيدة وسط عائلة عمها مع آرام، ولكن شيئاً ما في داخلها سيبقى ضعيفاً، قابلاً للكسر. كانت تحب الوحدة، وتميل إلى الانعزال في غرفتها، بين ألعابها، ثم، بعد أن كبرت، كتبها والموسيقى التي تعشقها، تستمع إليها مراراً وتكراراً، هاربة من ضيوف عمها وزوجته، حتى حين يحضرون برفقة أولادهم. لم يكن لها أصدقاء تزورهم أو تستقبلهم، وكانت تضجر بسرعة حين يخرجون للتنزه. لم تكن تدب فيها الحياة إلا عندما أحضر لزيارتهم، فتصبح، على ما كان يجمع أفراد عائلتها على قوله، فتاة أخرى، مليئة بالنشاط والحيوية، تواقة للخروج في النزهات، ثم، بعد أن كبرت، في سهرات برفقتي ورفقة آرام. كل هذا لم يثر قلقي أو قلق عائلتها في حينه. كنا قد اعتدنا على طبعها، وكانت تلك الخصائل لا تتعدى كونها فرصة للتندر حين نجتمع ونسعى إلى إغاظتها، فنسمي غرفتها بالصومعة وندعوها بالناسكة.

حدث وحيد عكر حال الاستقرار الجديدة التي كنت أعيشها: أتى خالي ذات مساء إلى مركز المجلة، ودخل من الباب وسلم على الجميع وهو يبدو، كعادته، على عجلة من أمره. قال لي من دون مقدمات: «سينقلونني إلى ديرنا في القدس، فقد توفي رئيس الدير هناك، وعليّ أن أحل محله.» لم يبد لي أن الخبر يزعجه... تساءلت عن سبب ذلك الألم الذي شعرت به، كقرصة في القلب، أو كعضة حية، تتغذى من أحشائي. لماذا أحزن وأنا لا أكاد أراه مرة كل شهر؟ لماذا أتألم وأنا أعلم أنه، بين الزيارة والأخرى يكاد لا يتذكرني؟ سألني إن كنت أحب أن أذهب معه، مضيفاً أن ذلك لن يتم بسهولة لأن عليه أن يستحصل إذناً من المطران، وأن يجد لي مدرسة هناك

و... لم أعد أتابع. كان مجرد سؤال يبعد به أي أثر قد يبقى عنده للشعور بالذنب، كان سؤالاً لا يبحث إلا عن جواب وحيد.

«كلا، سأبقى هنا»، قلت.

«هذا أفضل لك.» أجاب مسرعاً، ثم أضاف: «سأراسلك بشكل منتظم وأسأل مدير المدرسة والآنسة ماري عن أخبارك.»

كما توقعت، كل شيء كان مرتباً. عندما رحل خالي، أرسلتني الآنسة ماري برفقة صحافي تعرفه إلى بيروت لأمضي بضعة أيام مع آرام وسوسن، وأدت هذه الرحلة غرضها الشفائي إذ أنستني أن الحياة تدور مبعدة عني كل أهلي. منذ ذلك اليوم، غدا للرحلة بين دمشق وبيروت طعم الترياق، ولصفارة القطار صوت الموسيقى التي تشفي جراح الروح.

غياب خالي سيكون له نتيجة مفاجئة بالنسبة إلي، إذ سيقرب بيننا بالمراسلة، ربما لأنه، حين ابتعد عن معارفه ويومياته، أدرك أهمية المحافظة على التواصل مع العضو الوحيد المتبقي من عائلته، أو ربما، في خضم الاحداث التي عصفت بوطننا، شعر بضرورة كتابة ما يحصل لتوثيقه ولتبيان وجهة نظره. ما زلت أحتفظ بتلك الرسائل إلى اليوم، وكلما حانت مني التفاتة إلى الدرج حيث أودعتها أشعر بشيء من الذنب لأنني لم أستثمرها، لم أنشرها... ربما الآن وقد بدأت بكتابة الرواية، أستطيع أن أبني عليها رواية تاريخية تفصح عن بعض ما خفي من ذلك التاريخ الأسود وتحارب بدورها التشويه والكذب.

في رسالته الأولى، أخبرني عن المؤتمر الفلسطيني العام المنعقد في القدس الذي أرسل إلى مؤتمر الصلح مذكرتين يرفض فيهما وعد بلفور ويطالب بالاستقلال. كانت رسائله خالية، إلا فيما ندر، من الأخبار الشخصية، ومن المشاعر، مجرد تقرير للأحداث الجارية، ولكنني كنت أفرح لأنه وجد أنني من النضج بما يمكنني أن أكون محاوراً صالحاً، أو على الأقل، قارئاً مناسباً لأفكاره. ولكنه كان يختم رسائله بتوصيات أخلاقية وسلوكية تذكرني بأنني لست وحيداً تماماً في هذا العالم. ستستمر المراسلة بيننا سنين

طويلة، وستتبعني رسائله حيثما أكون. منه سأعرف تفاصيل ما كان يُحَضَّر لفلسطين، منه سأقرأ أسراراً لم تطلعنا عليها الصحف والإذاعات عن النكبة وما تبعها من الأهوال. سيبقى في فلسطين حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة في الدير الذي رفض أن يغادره في القدس.

كان للمرحلة التي تلت في حياتي عنوان التدرب على الحياة الاجتماعية والسياسية، تحت إشراف الآنسة ماري التي، بعد رحيل بترو باولي، علقت كل ما يرتبط بحياتها الخاصة لتتلخص اهتماماتها بالشأن العام. وكانت المجلة والمنتديات الأدبية العديدة التي أنشأتها وشاركت فيها تشكل الأداة المثلى بالنسبة إليها لإيصال صوتها والمساهمة في وضع الحجارة السليمة في أسس الدولة الجديدة.

سلكت آمالنا طريقاً تصاعدياً حتى المحطة الأولى التي كانت تتويجاً للقاءات وورش عمل ودراسات عنوانها معالم الوطن الذي نريد، تلك المحطة كانت المؤتمر السوري العام الذي تشكل ليعبر عن رغبات أهل سورية أمام لجنة الاستفتاء المبعوثة من مؤتمر الصلح، فانطلق في حزيران 1919 وأُعلن عن مقرراته بعد اجتماع عقد في 8 اذار 1920.

إن كتابتي لهذا التاريخ لم تأت بشكل تلقائي، إنما هي تعبير عن قرار اتخذته بعد أن توقفت، قبل أن أرسم خطواتي المستقبلية، لألقي نظرة على حياتي الماضية وأدركت كم فاتني من الأحداث الكبيرة التي مرت على أمتي، وانا منغمس في مشاكلي الفردية، من دون أن أتمكن من ربطها بالأفق الواسع الذي كان يحدد تطورها ويقرر صيرورتها. كنت جزءاً من الأحداث الكبيرة التي عصفت بالبلاد، عصفوراً صغيراً تتقاذفه الرياح الآتية من مصالح الأمم الكبرى، ولم أكن أنظر إلا إلى تأثير تلك الرياح على ريشي الطري، من دون أن أكترث لمصدرها ومسارها. كنت صغيراً وكان التاريخ أكبر من أن تتسع له أفكاري. كبرت فقررت أن أروضه، واخترت أن أهتم بدراسته، فكان عنوان اختصاصي الجامعي. اليوم أعترف، بعد كل هذه السنين أنه ما زال أوسع من أن تضمه الكتب والمحاضرات والدراسات

الفردية، وأنه أخطر من أن يبقى إطاراً أكاديمياً صرفاً لا تترجمه مؤسسات كبرى خططاً ونهجاً، وأن شعوباً كثيرة تاهت لأنها غفلت عن خطورته.

ولكنني أقاوم رغبتي الجامحة في كتابة كل تلك التفاصيل التي قدّر لي أن أشهدها... ربما، في أحد الأيام القادمة، سأتمكن من وضعها بين دفتيّ كتاب تاريخ، أبعثر نسخاً منه في أمكنة متفرقة خوفاً عليها من الضياع بين الإهمال والنوايا السيئة... أو ربما لا أفعل، إذ يسمح لي العمر بإلقاء بعض الأعباء عن كاهلي، متذرعاً بأمل خادع بأن يلتقطها غيري ويقوم بالمهمة.

لم ينتدب للمشاركة في المؤتمر امرأة واحدة، ولم يكن الأمر مطروحاً للتداول في تلك المرحلة. كانت تطلعات مناصري المرأة لا تتجاوز السماح لها بممارسة بعض المهن وبالتعبير عن رأيها كتابة في عدد محدد من المنشورات أو شفوياً في بعض المنتديات. أتساءل اليوم لو أن امرأة مثل ماري العجمي أو غيرها من المناضلات المتنورات ساهمت في صياغة السياسات في طور تشكل الدولة لكانت سمحت بتجنب بعض الهفوات أو الأخطاء الكبيرة. أتساءل فقط، ربما من موقعي الصغير آنذاك، المعجب برجاحة عقل تلك المرأة، وبقدرتها على مراجعة أفكارها ومواقفها، ومعجب بشكل خاص، بتجردها من أي نوع من أنواع الأنانية.

عندما سئلت إن كانت ترى في السيد الياس عويشق وعزة الذي اختير ممثلاً عن مسيحيي دمشق ممثلاً صالحاً لها، أجابت بغضب: «كلهم يمثلونني، وليس فقط ممثل المسيحيين، ولا حتى ممثلو دمشق، أعلق كل آمالي على الأعضاء الخمسة والثمانين من دمشق وشرق الأردن وإنطاكية وبيروت وطرابلس وجبل لبنان وفلسطين وحلب وحماه وحمص ودير الزور وجبل الدروز، ولهم ثقتي.» كان العديد منهم أصدقاء لها، اجتمعت معهم وساهمت في التفكير والتخطيط لهذا المؤتمر الذي شكل أول برلمان سوري في تاريخنا الحديث. واكبت دوراته الثلاث، عقدت وشاركت في لقاءات نوقشت خلالها كل المسائل الإشكالية مثل العلاقة بين الدين والدولة، وقضية المرأة، والمواطنة والهوية، والعلاقة بين النمط القومي للدولة واللامركزية الإدارية.

كنت أحضر بعضها، خصوصاً تلك التي كانت تعقد في مقر المجلة، وأستمع إليها تطلعني على خلاصة النقاشات في تلك التي كنت أغيب عنها، وتسهب في شرح ما يصعب عليّ فهمه، تلخص الأفكار المتضاربة والمشاعر المتناقضة، بين ما يسمى بالبراغماتية السياسية وهي الإقرار بالضعف وبعدم القدرة على مواجهة فرنسا وبريطانيا، والقومية التي هي ثقة القوم بأنفسهم، وبحقهم في بناء دولة مستقلة ضمن حدود وطنهم الطبيعية. وتدورالنقاشات، وتدور الحجج في رأسي، هذا يتكلم على ادعاء وزير الخارجية الفرنسي بيشون، في أثناء جلسة مناقشة في الجمعية الفرنسية العامة، أن لفرنسا حقوقاً «لا تقبل الاعتراض في سورية»، و بالتالي هي الدولة التي يجب إبعادها بالدرجة الأولى، وآخر يشير إلى المخططات البريطانية المتعاونة مع اليهود، وآخر يؤكد أننا إن لم نفاوض ونساوم خسرنا كل شيء. وأنا أستمع وأحاول أن أجد خلاصات تدعم ميلي المبدئي إلى جبهة القائلين بقدرتنا على مواجهة الجميع وإنشاء دولتنا المستقلة، فلا أفلح تماماً إذ كنت أتوه وسط الأفكار المطروحة. أتدرب على صياغة فكرتي حين ألتقي بآرام، ولكن صديقي لم يكن يبدي الاهتمام الكافي بكل تلك الشؤون، ويسارع في حرف حديثنا نحو منحى اللهو، أو حين يكون جدياً، نحو أحلامه وخياراته المهنية.

في دورته الاولى التي عقدت في النادي العربي، توصل المؤتمر إلى قرار عرف ب «برنامج دمشق» قدم إلى لجنة التحقيق كينغ-كراين في الثالث من تموز، ولكننا علمنا بمضمونه قبل ذلك، فور صدوره، وكان احتفالاً تلقائياً خفقت فيه القلوب فخراً وأملاً. تلك المقررات لخصت آمالنا بوحدة واستقلال سورية ورفض الهجرة اليهودية.

يا ليت الزمن توقف عند ذاك اليوم المبارك!

تلك الورقة التي نقلت عليها المقررات بخط يدي، لا زلت أحتفظ بها إلى اليوم، غنيمة ثمينة من زمن الأمل.

جاءت توصيات لجنة كينغ- كراين مطابقة للآمال التي عقدناها، إذ أوصت في مقترحاتها بضرورة المحافظة على وحدة الشعب السوري وفق

رغبة السواد الأعظم من السوريين. ربما كانت هذه زلة يتيمة من التاريخ، إذ لم تنصفنا الدول الكبرى بعد ذلك، ربما كان تقاطعاً وتضارب مصالح لم نفقه خطوطها في ذلك الزمن.

كنت جزءاً من كل هذا، مساهماً في هذا البناء العظيم الذي بدأت ملامحه بالظهور. للمرة الأولى، سيكون لنا دولة تأوينا. لن نقف مشردين، ضعفاء، متسولين على أرضنا، لن تتلاعب بنا رياح المصالح الكبرى، سنكون مدركين هويتنا.

كيف لمن كان له هذا الايمان أن يرضى بما سيفرض على بلاده لاحقاً؟ ولكن المأساة تكمن في تفاوت أوقات إدراك الحقائق لدى المجموعات العاملة كما لدى الأفراد، وتفاوت الاقتناع بالخطط وعدم القدرة على خلق إجماع حول أي مشروع.

استمر الشعور بنشوة الانتصار خلال الأشهر الاولى من العام 1920. أذكر منها جيداً تاريخاً وقفنا فيه في ساحة المرجة، وأطل علينا نائب رئيس المؤتمر السوري من شرفة مبنى البلدية وتلا علينا بيان استقلال سورية. صفقنا حتى اشتعلت أكفنا، واحتفلنا بالعلم الجديد، علم الاستقلال الذي كان راية الثورة العربية الكبرى مضافاً إليها نجمة سباعية في وسط المثلث الأحمر تمثل مناطق سوريا السبع، وهي ولاية دمشق، ولاية بيروت، شرق الأردن، فلسطين، ولاية جبل لبنان، ولاية حلب، سنجق القدس. وأطلق المدفع مئة طلقة وطلقة ابتهاجاً واحتفلت دمشق، كما باقي المدن السورية بولادة دولتها. توالت مناسبات الفرح علينا، منها إصدار أول عملة سورية، الدينار السوري... حين أمسكت القطع المستديرة بيدي، بدا لي معدنها البارد دليلاً قاطعاً على قوة البناء الذي كنا نشيده. كنت أشعر أنني شريك في كل ما يحصل، مساهماً أساسياً في صناعة التاريخ... كنت في مقتبل العمر.

لم أكن أذكر تاريخ ميلادي، ولم أحمل معي أي وثيقة تدل على هويتي، فكلفت الآنسة ماري أحد المسافرين إلى جبل لبنان أن يهتم بالاستحصال على أوراق ثبوتية لي، وقررت أن يسجل تاريخ ميلادي في الأول من نيسان،

لأنه، كما قالت، التاريخ الذي كان الأشوريون يحتفلون فيه برأس السنة السورية، وأعدت مفاجأة لي في هذه المناسبة، فطلبت من جيهان إعداد قالب من الحلوى واحتفلنا برفقة شقيقتها وصديقتين مقربتين، وشربنا الشاي واستمعنا إلى عزف الآنسة إيلين على البيانو. وفي نهاية السهرة، نهضت لأغادر إلى المدرسة، فسألتني الآنسة ماري بشيء من المكر: «كيف ستذهب؟» «مشياً، وحدي.» أجبتها متفاجئاً، فقالت: «لا أعتقد. أنظر هديتك عند الباب. هناك كانت المفاجأة الرائعة، إذ وجدت دراجة هوائية جديدة تنتظرني. كانت هدية العيد. دراجة لي أنا! كنت الوحيد بين رفقائي الذي لم يكن يقتني واحدة، وكنت من وقت إلى آخر، أتدرب على ركوب إحدى دراجاتهم فأدور بضع دورات في الملعب. «هل تجيد ركوب الدراجة؟» سألت الآنسة ماري. أومأت برأسي، غير قادر على التلفظ بكلمة. «إذاً عد بها إلى المدرسة.» عانقتها للمرة الأولى منذ أن عرفتها، إذ كانت محبتنا منذ البداية صامتة، تكاد تخشى التعبير عن نفسها. عندما ضمتني بين ذراعيها بدا لي أن زهوراً صغيرة تتفتح في صدري. سيكون لتلك الدراجة الفضل في مساعدات جمة سأتمكن من تقديمها للثوار.

لم يتسن لي أن أفرح بها طويلاً إذ سرعان ما تكتلت الغيوم في سمائنا، حين وصلت إلينا، قبل نهاية ذلك الشهر، بنود معاهدة سان ريمو التي عقدها المجلس الأعلى للحلفاء وكانت مناقضة لكل ما قرره المؤتمر وما احتفينا به، إذ نصت على وضع سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ووضع العراق تحت الانتداب الإنكليزي، ووضع فلسطين وشرقي الأردن تحت الانتداب الإنكليزي مع الالتزام بتنفيذ وعد بلفور.

فور سماعنا تلك المقررات، ضاقت صدورنا بالغضب وضاقت بنا البيوت، فنزلنا في مظاهرات تلقائية إلى الشوارع، ورحنا نصرخ ملء حناجرنا رفضنا لأن نكون مجرد غبار على خارطة تمتد إليها أصابع أسياد الحروب لترسم الخطوط الملائمة لسياساتهم، تربط من هنا وتقطع من هناك، وتنتهك كل أمل لنا بالنهوض.

وإن كانت سمة النصر هي توحيد الشعب في احتفالات الفرح والأمل، فللأزمات والهزيمة قدرة فائقة على بث الشقاق، وتقسيم القوى في مجموعات متضاربة الآراء، مختلفة النزعات.

راح صدى الأصوات المتناقضة يتردد من جديد في رأسي حتى بت أشعر أنني على شفير الجنون، فهذا يقول بضرورة الاتصال بالأتراك ليساعدونا ضد الحلفاء، وذاك يحمل إلينا معلومات حول مفاوضات تجري بين أتاتورك والفرنسيين وتهدف إلى تنازل الفرنسيين عن الأقاليم السورية الشمالية وتسليمها إلى السلطة التركية الوليدة، وآخر يؤكد أن وحدها القوة قادرة على تحصين حقنا... وأنا أميل إلى النظرية الأخيرة، ولكنني عاجز عن مقارعة حجج من يحاضرون في النظريات المضادة، ومنهم السيد بوغوس، عم آرام، الذي كان من دعاة القبول بمشيئة فرنسا لنجنب أنفسنا المزيد من الويلات. السيد بوغوس كان من المقربين من البطريرك حويك الذي كان يطالب باستقلال لبنان، مقسماً إياه وفق مصالح طائفته، رافضاً أن يضم إليه جبل النصارى حيث الأكثرية الأرتودوكسية، لكي يبقي على الأكثرية المارونية فيه. هذا التفصيل الأخير لم أكن أعرفه في حينها، ولكنني، كنت أتمسك في مواجهة محاضرات السيد بوغوس، ببعض الحجج التي كنت أدسها بين فقرات خطابه، من دون أن أتأكد أنه سمعها جيداً، حجج سمعتها في دمشق، بخاصة ممن كانوا ينقلون وجهة نظر وزير الحربية يوسف العظمة، حول التمسك بفكرة النضال ضد المحتل. كان السيد بوغوس واثقاً بأفكاره، لا يطرح قناعاته على طاولة النقاش، صلباً، وكان يثير فيّ شيئاً من الرهبة. كنت أخرج من تلك السهرات الطويلة وقد تملك مني الضيق والغضب من السيد بوغوس ومن نفسي أيضاً لتقاعسي عن الدفاع عن وجهة نظري، فأقول لنفسي إنني لن أعود لزيارتهم بعد اليوم، وأنني سأكتفي بالعيش بين من أشعر بالانتماء إلى مشروعهم، وبمشاركتهم في الرؤية والعمل لإنجاح هذا المشروع. أقول لن أعود، ويعيدني حنيني إلى آرام وإلى سوسن الفتاة الصغيرة التي تغلغلت في حنايا صدري، والتي كانت تنتظر زياراتي بشوق وتحزن عندما أغادر.

ولكنني لم أعد أستطيع الابتعاد كثيراً عن دمشق، حيث كانت الأحداث تتسارع واللقاءات تتكثف وتزداد حدة، وأنا أشعر أنني حارس مولج بمراقبة التطورات، لا أسمح لنفسي بالتغافل عن واحد منها، كأنني، إذا سهوت قليلاً، سأستفيق لأرى زلزالاً قد ضرب كل ما حولي. وكنت أدقق النظر وأصغي بشغف وأراقب من دون كلل، والزلزال يتقدم. وفرنسا تبسط سلطتها غير آبهة، والمفوض السامي غورو يرسل المطالب التي تمحو كل ما تم إنجازه من فصول الاستقلال...

ذات يوم، إذ كنا على مشارف العطلة الصيفية، وبينما كنت أستعد لركوب دراجتي للتوجه إلى مكتب المجلة، سمعت صوتاً يناديني، التفت فرأيت أنس البكري متوجهاً صوبي. كان أنس أكبر سناً مني، وكان يتمتع بهيبة بين التلامذة، ليس فقط لأن عمه كان واحداً من ممثلي دمشق في المؤتمر السوري، بل لامتلاكه شخصية قيادية وقدرة على الحوار والمقارعة بالحجج التي لا يصمد أمامها أي من رفقائه المناوئين لأفكاره. كنت قد شاركت مرة أو مرتين في تلك الحوارات، وابديت رأيي بخفر، كما ساهمت في كتابة بيان باسم الطلبة السوريين يؤكد إصرارنا على الاستقلال، ولكنني لم أعتقد أنني كنت مرئياً بالنسبة إلى شخصية كأنس. حيّاني ثم بادرني بسؤال مباشر:

- هل تريد أن تقوم بما هو أهم من الكلام للدفاع عما تؤمن به؟

- بالتأكيد. ما المطلوب؟

- المطلوب هو أن نستعد لمواجهة التحرك الفرنسي الذي يهدف إلى هدم ما بنيناه.

- أنا مستعد. قل لي ما الذي يجب أن نفعله.

- عليك أن تقسم أولاً أنك لن تبوح لأي إنسان بما سأقوله لك.

لم أتردد. أقسمت على الإبقاء على سرية ما سيدلي به. لم تكن الحياة قد علمتني بعدُ التروي قبل تقديم الوعود أو وهب ثقتي لأي كان.

- إننا نجتمع لنتدرب على القتال مع عدد من ضباط الجيش.

- حقاً؟ ولكنهم قالوا إن التجنيد لا يشمل إلا من هم بين سن العشرين والخامسة والعشرين.

- هذا بالنسبة إلى التجنيد الإجباري، ولكننا بحاجة إلى كل من يمكن أن يحمل بندقية. عدد أفراد الجيش قليل جداً بالمقارنة مع الجنود الفرنسيين الذين بدأوا يحتشدون... لا مفر من المواجهة المسلحة. شرارة الثورات انطلقت في مناطق عدة من سورية، في الجولان وفي إنطاكية واسكندرون وتلكلخ وإدلب وغيرها...

كنت اعرف كل تلك المعلومات، ولكن ذلك لم يمنع الرعشة من السريان في أحشائي، إذ كانت المرة الأولى التي توجه إليّ بشكل مباشر وأحمل مسؤولية ما في ما كان يجري. وافقت أنس حين ختم حديثه بالقول: «لن نسمح لهم بأن يسرقوا استقلالنا.» واتفقنا أن نلتقي عند الخامسة فجراً في جادة الدرويشية أمام السبيل قرب مدخل جامع السياس حيث كان ساسة العربات يتجمعون ليسقوا خيولهم. ومن هناك سنستقل عربة توصلنا إلى مكان التدريب. عندما تركني وأقفل راجعاً، شعرت أنني أحلق فرحاً. قدت دراجتي بسرعة جنونية وتوجهت إلى المكتب حيث كان من العسير عليّ أن أخفي سعادتي عن الآنسة فريدة. ولكنني، حين واجهتني بسؤالها عن سر الابتسامة التي لا تفارق وجهي، قلت لها إنني حصلت على درجات ممتازة في الامتحانات. ولم تكن تلك كذبة تماماً... كنت معجباً بنفسي لقدرتي على المحافظة على الأسرار التي اؤتمنت عليها.

استمر هذا الزهو حتى بدأ التدريب الفعلي في اليوم التالي، وكان يوم جمعة، فاستغل المسؤولون يوم العطلة ليمددوا المدة حتى بعد الظهر. كان التدريب شاقاً، وكدت أعلن انسحابي عدة مرات. ولكنني عدت، وبدأت أعتاد هذا النمط من الحياة، نخرج كل يوم قبل بزوغ الفجر إلى تلة من التلال المحيطة بدمشق ونتدرب لساعات، ثم نعود بعدها إلى بيوتنا أو أعمالنا. كان هذا السر الأول الذي أخفيه عن الآنسة ماري، وقد شعرت بالارتياح لانشغالها

عني بسبب متابعتها التطورات الخطيرة الحاصلة. لم يستمر نشاطنا هذا أكثر من أسبوعين، فاجأتنا بعدها الأحداث بينما لم يكن تحضيرنا قد تم.

كان إنذار غورو في الرابع عشر من تموز إعلاناً ببدء المواجهة. كانت أهم بنود الإنذار قبول الانتداب والتعامل بالنقد الورقي الذي أصدره مصرف سوريا ولبنان في باريس وتسريح الجيش ومعاقبة كل من تورط في أعمال عدائية ضد فرنسا.

مرة أخرى، انقسم المسؤولون حول خيار الرضوخ أو المواجهة، انقسموا بين مؤيد لقبول الإنذار، ومنهم الملك وعدد من الوزراء، وبين رافض، وعلى رأسهم وزير الحربية يوسف العظمة. كان الوضع دقيقاً، وكانت مجموعة الشبان تعقد الاجتماع تلو الآخر، نكتب البيانات المؤيدة لموقف العظمة، نوزعها على المارة في الساحات، ونحن نلف رؤوسنا وجزءاً من وجوهنا بالكوفية، او نخط على الحيطان شعارات ترفض إنذار العار. كان الشعب كله في الساحات ولكن مصيره، كما يحدث دائماً، كان يحاك في القاعات المقفلة، تحت جنح ظلمة خُطَّط لها أمداً طويلاً.

كل كلماتنا لم تبلغ آذانهم أو تقع تحت أنظارهم، ولم ننجح في منع الحكومة عن القبول بالإنذار، فاجتمعت في القصر الملكي وأعلنت قبولها الرسمي، وطلبت من الجيش الانسحاب. وصل الاحتقان إلى درجة الغليان، فثارت الاحتجاجات في كل الساحات، وعلت الهتافات. توجهت مجموعتنا برفقة عدد من الجنود المسرحين إلى قلعة دمشق حيث قيل لنا إن الحكومة تعتقل عدداً من المناوئين لها. كان الجنود، بناء على أوامر يوسف العظمة، ما زالوا يحتفظون بسلاحهم الفردي. عند القلعة، طلبوا منا أن نبقى خلفهم، ووقعت مواجهات بينهم وبين رجال الأمن المولجين بالحراسة، لكنهم تمكنوا من محاصرة القلعة، ثم احتلالها، وأطلقوا سراح السجناء واستولوا على بعض السلاح الذي كان موجوداً هناك.

طلب منا أنس أن نعود للمشاركة في التظاهرات وأن نتوزع في الساحات، ساعين إلى منع أعمال النهب والسرقة التي بدأت بالتفاقم،

مهددة أهداف الاحتجاجات. من كان سيستمع في هذه الأمواج البشرية المتلاطمة، إلى مجموعة من الشبان الذين يصرخون منادين بضرورة الالتزام بالأخلاق، وبالابتعاد عن كل ما يشوه أهدافنا؟ وحده الرصاص الذي انطلق من أفواه بنادق فرقة من العسكر أرسلها الملك فيصل نجح في ردع السارقين، كما في صم الأصوات الغاضبة. انجلى دخان الرصاص في ذلك اليوم عن حوالي مئتي ضحية، من بينهم أنس البكري، قائدنا الشاب. وقفنا فوق مدفنه، عند أصيل اليوم التالي واجمين، إلى أن علا صوت من بيننا يطلب منا أن نردد وراءه قسماً بمتابعة النضال حتى تحرير بلادنا من المحتل. عندما انتهينا، أطلعنا أحد الشبان على آخر الأخبار مؤكداً أن، على الرغم من قبول الحكومة الإنذار، بدأ الجيش الفرنسي يتقدم لاحتلال دمشق، وأن غورو تذرع بعدم استلام البرقية التي تعلن القبول في الوقت المناسب، بسبب قيام «العصابات السورية» بقطع خطوط البرق.

شاركنا في معركة ميسلون.

خرجنا مع حوالي أربعة آلاف متطوع متسلحين ببنادق إنكليزية. قبل أن ننطلق، خطب فينا القائد العظم قائلاً إن ايماننا هو السلاح الأمضى وإن قوة المدافع عن أرضه تتضاعف في مواجهة المهاجم المغتصب. وأنشدنا النشيد السوري الذي كتب كلماته المطران إبيفانيوس زائد ولحنه المرتل ديميتري المر. ما زلت أذكر كل حرف منه، وما زلت أردده حين يتعب إيماني ويحلم قلبي بالاستلقاء بعيداً عن كل الضجيج.

يابني قومي صعوداً.....وارتقوا أعلى الذرى

واجتلوا العصر الجديدا.....بالأماني مزهرا

أُنشروا فيه بنوداً.....خافقات في الورى

أيقظوا فيه الرقودا..... من دياجير الكرى

* * *

ايه سوريا بلادي.....فجر أنوار الهدى

دمت يامهد العباد.....في سلام للمدى

إن سوريا فتاةٌ.....حبها كل الأمل

ما لسوريا نجاة .....إن غدت بضع دول

ليس للعضو حياة.....إن على الجسم انفصل

بل ذبول وممات.....واندثار في العجل

* * *

فاخري الأقطار خص.....با والثريا منزلا

عانقي لبنان حباً ..... والثمي فيه العلا

قد جرى ماؤك عذبا.....في الروابي سلسلا

أنت أذكى الأرض تر.....با قد غلا بين الملا

وقف القائد أمامنا وأطلق النشيد من شراييه. هل كان مؤمناً حقاً بالنصر، أم أنه قرر أن لا يسجل التاريخ على جيشه وشعبه عار الاستسلام من دون مقاومة؟ قيل لي فيما بعد إنه ألقى أمام الملك فيصل، قبل أن يغادر، بيت المتنبي الشهير:

«لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدمُ.»

أضاف أنه لن يسمح أن يسجل التاريخ أن سورية انهزمت من دون مقاومة، وأوصاه، في حال استشهاده، أن يرعى ابنته ليلى.

قيل إنه تعرض للخيانة من فرقة التفت عليه من الخلف، قيل إن أسلاك الألغام التي وضعها في آبار في وادي القرن ليعطل زحف الجيش الفرنسي قد قطعت.

قيل أيضاً، إنه لم يكن يعرف كيف تدار المعارك الكبرى. عند الهزائم يسهل اتهام القادة بالخطأ، قلما يبحث المرء عن أسباب بعيدة وعميقة.

لذلك تسهل هزيمته مرة بعدة مرة.

لم أكن قد أطلقت رصاصة واحدة حين اشتعل الجحيم من حولي وراحت القذائف تتساقط حاصدة أرواح الجنود والمتطوعين. بين قذيفة وأخرى، كان صوت يصرخ حاثاً إيانا على الصمود، فالنصر على بعد ساعات، وتتناقل الحناجر هذا النداء: «النصر على بعد ساعات.» قيل إن القائد كان واثقاً أن المجتمع الدولي سيتحرك لردع العدوان عنا...

كنا في الطور الأول من العمل السياسي ولم تكن التجارب قد علمتنا أبعاد مصالح الدول... وضجيج الطائرات يمنعنا من التفكير. قيل إن يوسف العظمة توجه إلى أقرب مدفع رشاش يعمل عليه أحد الرقباء ليساعده على إطلاق النار، فسقطت قذيفة، قبل أن يضغط بيده على الزناد ومزقت جسده.

في هذا الوقت، كنت أصارع الموت، وقد انتشرت الشظايا في أنحاء جسدي، ولم أشعر بالهزيمة. لم أعرف أنه، في اليوم التالي وجد من يقدم مفاتيح دمشق للغازي غورو، ووجد من يصفق له، ومن يقف ساكناً يراقبه وهو يركل قبر صلاح الدين بقدمه ويقول: «قلت لنا لن تعودوا، وها قد عدنا.» لم أعرف غربة رفقائي الذين وجدوا أنفسهم أيتاماً بعد استشهاد القائد وخروج الملك وعودة الناس إلى ممارسة يومياتهم. كنت راقداً في منزل الآنسة ماري، بين الحياة والموت، يزورني الطبيب صباح كل يوم، وتعكف سيدات المنزل على السهر عليّ. لم أعاين حزن الآنسة ماري من جراء تداعيات ما جرى وبشكل خاص تقسيم سوريا الى أربعة مناطق وهي دولة سوريا وعاصمتها دمشق، دولة العلويين وعاصمتها اللاذقية، دولة جبل الدروز وعاصمتها السويداء ودولة لبنان الكبير وعاصمتها بيروت. ولكنها، حين تماثلتُ إلى الشفاء، ورحت أطرح الأسئلة، قالت: «لقد رسم يوسف العظمة بدمائه حدود وطن لن يهزمه أي احتلال. إن قوة الشعوب النفسية أشد أهمية من قوتها المادية.» ورددت لي عباراته الأخيرة التي سمعتها من أحمد قدري، طبيب الملك فيصل الخاص:

«إني أعرف ما يجب عليّ، وسأقوم بواجبي، ولست آسفاً على نفسي، بل أسفي على الأمة التي ستظلّ سنوات كثيرة أو قليلة هدفاً لكل أنواع المحن والمصائب، وإني مطمئنّ إلى مستقبل الأمة، لما رأيته وخبرته بنفسي من قوة الحياة الكامنة فيها.»

كتبت الجملة الأخيرة على ورقة وأعطيتها إلى رفيقين من الناجين من فرقة المتطوعين، قدما لزيارتي، فنسخاها ونقلاها بدورهما إلى آخرين... «إني مطمئنّ إلى مستقبل الأمة، لما رأيته وخبرته بنفسي من قوة الحياة الكامنة فيها»

هكذا أسست عبارته تلك لفريق عمل سيكون هدفه على مدى السنين القادمة مقارعة المحتل، وأطلقنا على نفسنا اسم «أبناء الحياة». قد يبدو الاسم مضحكاً اليوم، ولكنه لم يكن كذلك آنذاك، كانت الأسماء والعناوين الصادرة من الوجدان مستحبة في ذلك الزمن.

بعد مرور أسبوع على المعركة وإصابتي، دخلت الآنسة ماري إلى غرفتي والابتسامة تعلو وجهها. كان ذلك استثنائياً في الظروف الصعبة التي كنا نمر بها.

«ما هو أكثر أمر قد يفرحك الآن؟»

مرت ببالي شرارة نور، ولكنني تجاهلتها، وأجبت ممازحاً:

«دراجة أخرى!»

ضحكت وقالت:

«فكر بجدية أكبر وإلا لن أسمح للزائر بالدخول.»

تحولت الشرارة إلى شهاب. هل أتعلق به؟ أم أنسحب إلى ظلماتي؟ هل يعقل؟

«آرام!؟»

«ومن غيره؟»

فتح الباب ودخل، فانتشر الضياء في قلبي، ورحت أضحك ولا أقدر على التوقف رغم الألم في أضلعي.

حاول إخفاء مفاجأته حين رآني، ربما بالغت الآنسة ماري في طمأنته ولم تشرح له واقع الحال، لم تخبره حتماً عن ذلك الجرح الذي يمتد من طرف وجنتي حتى ذقني والذي سيرافقني أثره طوال حياتي، الجرح المخيف سيتحول إلى ندبة أتحسسها اليوم بحنان لأنها تشير إلى ذلك التاريخ الصافي. عانقني بحذر، فتمسكت بيده. صديقي، عائلتي، تاريخي وحاضري.

«كيف عرفت؟»

«اتصلت بي الآنسة ماري البارحة.»

كانت واقفة في زاوية الغرفة تراقبنا والدموع تغطي عينيها الجميلتين كغلالة رقيقة. فيما مضى، لم تكن ترضى أن تسمح لها بالظهور على الملأ.

«كان عليّ أن أتصل قبل ذلك، ولكن خوفي عليك منعني من التفكير. وجوده سيساعدك على الشفاء.»

«لك معي هدية من سوسن، لم نخبرها بإصابتك، لأنها لو عرفت سترفض المكوث لحظة واحدة في بيروت.»

أخرج من جيبه علبة مغلفة بورقة خضراء. حاولت أن أفتحها، ولكن يديّ لم تعاوناني على ذلك، فأخذها مني آرام وفتحها وأخرج منها وشاحاً جميلاً.

«جَمَعَتْ ثمنه من مصروفها وطلبت مني أن آخذها إلى السوق وانتقته بعناية، ثم خبأته في خزانتها بانتظار زيارتك، كما اشترت لي واحداً يشبهه. عندما علمت أنني آت لزيارتك، لم تكن مسرورة لأن ذلك يؤخر ذهابك إلى بيروت، كما قالت، ولكنها، مع ذلك، سلمتني الهدية، مع رسالة شفوية تلح فيها عليك بمرافقتي عند عودتي إلى بيروت.»

سيبقى آرام عندي مدة شهر، لن يفارق فيه غرفتي إلا فيما ندر، ينام على فراش وضعته له جيهان على الأرض قرب سريري، يهب واقفاً في منتصف الليل إن تأوهت من الألم، يقدم لي الدواء وكوب الماء، ويطعمني في النهار ويقرأ لي الجرائد والكتب. كالنبات المتسلق بسطت محبته اخضرارها فوق جراحي النفسية والجسدية.

ولكن نفحة من البرودة كانت تسيطر على أجوائنا، بين وقت وآخر، حين يجد آرام الوقت مؤاتياً ليطرح أفكاره حول عدم الجدوى من الوقوف في مواجهة قوى هائلة تستمر في سيرها وتطحننا. وأنا أسأله لِمَ يستمر في الاعتراض على النهج الذي اقتنعت به ومارسته بينما لا أستاء من خياراته، فيجيبني أن خياراته لا تهدد حياته بالموت، وأن واجبه بصفته صديقي يحتم عليه إقناعي بضرورة اختيار الطريق الأقل خطورة. أسأله: كيف تصطلح الأمور إن قرر كل منا أن يبحث عن خلاصه من دون الالتفات إلى مصلحة الوطن وهي الضامن الحقيقي لمصلحة كل فرد فيه على المدى البعيد؟ يقول لي إننا أصغر من أن نفهم لعبة الدول الكبرى وصراع مصالحها، فأردف بالقول أننا نحاول، وأن الوعي ينتج عن تراكم خبرات من يفكرون ويسعون إلى مستقبل أفضل، ويقول وأقول، حتى نتعب، ونعلن استقالتنا من النقاش واستسلامنا للبرودة التي تستوطن علاقتنا، حتى تعود الغيوم فتنجلي. عليها أن تنجلي، فنحن لا نملك ترف الخصام، لا نملك أن نسلك درب العمر كل بمفرده، من دون كتف نتوكأ عليها، ومن دون ذاكرة صديقة تحفظ تفاصيل ماضينا. كان في البداية يبقى في الغرفة عندما يزورني أحد رفقائي من مجموعة الشباب، يستمع إلى ما نقوله بصمت، بعدها صار ينسحب حتى يغادر الضيف. شيئاً فشيئاً، خفت وتيرة نقاشاتنا وبدا أن آرام تعب من محاولات إقناعي بالابتعاد عن المشاكل، ولكن المسألة العالقة بقيت عالقة هناك، في مكان ما في أفكارنا، تعيق عبور الصراحة التامة، كخشبة منسية في مجرى ساقية.

لن أكذب وأقول إنني لم أندم أبداً على عدم الأخذ بنصائح آرام، وإنني لم أسمح لخيالي، حين كان منسوب التوتر يعلو كثيراً لسبب أو لآخر، برسم

حياة هادئة، أكتفي فيها بيوميات رتيبة، باستغلال فرص التسلية والفرح حتى أقصاها، بملاحقة الجميلات، والعناية بملابسي وقصة شعري، بالاهتمام بتحصيلي العلمي، وببناء مستقبلي... لحظات تعبر. هذه الصورة ليست أنا. لن تجعلني سعيداً. لايمكن أن تكون سعادة في حياة من شيد الجدران حول قلبه وصم أذنيه عن سماع أصوات الاستغاثة وقرر أنه من العبث أن يدافع عن أي قيم يؤمن بها، أو حتى أنه من العبث أن يؤمن.

خالي لم يستطع القدوم لرؤيتي بعد أن أبلغته الآنسة ماري بإصابتي لأن موجة من الاضطرابات وأعمال العنف كانت قد اجتاحت فلسطين على أثر قرار فصلها عن سورية، وانكشاف وعد بلفور. أخبرني في رسائله كيف كان يتم التحضير للمؤتمر الفلسطيني الثالث في حيفا، وعلى الرغم من أسلوب الرسالة الذي كان أقرب إلى التقرير الخطي المحايد، شككت أنه كان يلعب دوراً ناشطاً في كل ما يجري.

ذات مساء قرعت الآنسة ماري باب الغرفة ودخلت برفقة جيهان وهي تحمل طبقاً عليه صنف غريب من الطعام. ليس غريباً حقاً. أعرفه. وضعته جهان قربي على المنضدة وقالت: «هيا، تذوقه. أعددته خصيصاً لك. الآنسة ماري علمتني كيف أحضره.» تلك الابتسامة الماكرة على شفتيّ الآنسة ماري بت أعرفها، من أجلها لن أقول أن لا شهية لي على الطعام وسأحاول. التقطت قطعة بنية لامعة من الصحن فالتصقت بأصابعي. أعرفها. قضمت منها قضمة فانهالت عليّ الصور والأحاسيس ودارت بي الدنيا. «معكرون بالدبسّ» شهقت. طعم من حياة أخرى، من بيتنا في تلك القرية البعيدة، من وجه أمي ورائحة المطبخ، من الأواني النحاسية التي تلمع في ضوء الصباح، والستائر المزينة بزهور صغيرة...

أخبرتني الآنسة ماري عن كاتب فرنسي يدعى مارسيل بروست تذوق كعكة مغمسة بشراب ساخن فأعادته إلى زمن الطفولة حين كان يزور عمته يوم الأحد فتقدم له كعكة المادلين مع الزهورات. قالت إنها سألت عن طبق يعدونه في منطقتنا، فأخبروها عن الحلويات التي تعد بالدبس، فاختارت أن تمنحني تلك الفرصة لأقفز نحو الماضي الذي سبق الأحزان...

في الأول من أيلول، تمت دعوة مجموعة الشبان إلى لقاء في منزل سليمان شوري. كان المنزل فارغاً لأن أهله كانوا يقومون برحلة إلى مدينة بعلبك. كانت المرة الأولى التي أخرج فيها من المنزل وأسير أبعد من الحديقة منذ إصابتي. في رأسي دوار خفيف يشبه ذلك الذي يلف الصور التي نراها في الأحلام. كنا ستة وعشرين شاباً. جلسنا واجمين في البداية، تنوء أفكارنا تحت عبء الأسئلة الكثيرة التي تطرحها مرحلة لم ترتسم ملامحها بعد، ورهبة مسؤولية جديدة تنكبناها من دون أن ندرك أبعادها. تولى سليمان افتتاح النقاش، بعد هنيهة طلب أحد المشاركين الكلام، فقاطعه آخر، ثم بدأ الجميع بالتكلم في آن واحد، حاولت أن أتلفظ بعبارة تعيد النظام إلى الجلسة، ولكن أحداً لم يسمع صوتي الذي لم يقو على التغلب على حدة الأصوات الأخرى، أصوات مستفَزة بالحماسة، بالغضب أو بالخوف... خرجنا من الجلسة الاولى محبطين، غير واثقين من قدرتنا على القيام بأي عمل جدي.

عدت لرؤية سليمان في اليوم التالي، وبحثت معه في أسلوب يجعل اجتماعنا التالي منتجاً، فوضعنا له برنامجاً، واقترح أن أديره، فقد كان موقعي ك «جريح حرب» يمنحني مصداقية تسمح لي بفرض النظام على الموجودين. لم أتردد. كتبت مجموعة نقاط تجيب عن السؤال التأسيسي: كيف تستمر الثورة؟ حاولت قدر الإمكان ضبط الاجتماع حول اقتراحات تدخل ضمن الإجابة عن هذا السؤال، فكان الاجتماع الثاني أكثر نجاحاً من الأول، وبدأنا نبصر أول الطريق الذي كنا ندرك أنه طويل وشاق. في الاجتماع الثالث الذي تم في قبو مهجور، أقسمنا اليمين على المحافظة على سرية تحركنا وعلى تقديم كل الجهد المطلوب لإنجاح عملنا. بعدها، لا أذكر أنني أمضيت ليلة هادئة واحدة غفوت فيها من دون أن أراجع مراراً وتكراراً سلسلة من الأفكار والهواجس.

هكذا تشكل فريق «أبناء الحياة»، وهكذا عمل، على مدار خمسة أعوام عملاً دؤوباً، مؤمناً، مخلصاً، تعرضنا خلالها لبضع نكسات، اختلف عضوان فغادر أحدهما، وقرر آخر أنني لا أصلح لأكون في لجنة القيادة،

فحرن وابتعد عنا لمدة شهرين ثم عاد... وخلافات صغيرة أخرى كنا نحاول أن نحلها ونخرج منها بأقل خسارة ممكنة، ولكنها كانت تتعبنا وتعيق تقدمنا وتخيفنا، إذ أنها كانت تهدد بكشف أمرنا. كانت السلطات الفرنسية تتربص بنا، ترسل الجواسيس ليراقبوا الأحياء حيث كنا نلقي المناشير، فننتقل إلى أحياء أخرى. تدفع لهذا وترشو ذاك ليطلعها على أي معلومة، فلا تنجح لأن السر كان محمياً بإرادتنا الشابة وبثقتنا بجدوى ما نقوم به. لم يكن الأمر سهلاً لأن الفرنسيين كانوا قد نجحوا في اجتذاب العديد ممن كانوا حولنا إلى دائرتهم، من الأعمال إلى الصحافة والتعليم... فأصبحوا صدى يردد خطاب الانتداب ويبشر ببزوغ فجر جديد من الحضارة. كان علينا أن نواجه تياراً فكرياً وجد ليساند الانتداب، في الوقت الذي لم نشحذ فيه أدواتنا الفكرية بعد... رحت أحضر من جديد المجالس التي كانت تدعو إليها الآنسة ماري وأصغي بكل جوارحي إلى الأحاديث وأستعين بما أسمع لكتابة المناشير التي كنا ندسها تحت أبواب المنازل أو نلقيها في الشارع ليلاً، أو لكتابة الشعارات على الحيطان حين نكون متأكدين من خلو الشارع من المارة. «الانتداب يمارس سياسة فرق تسد»، «لسنا فرقاً طائفية، نحن مجتمع واحد»، «لا لتقسيم سورية»، «لا فرق بين الانتداب والاحتلال»... يقول المثل الشعبي «الحركة بركة». كان في حركتنا بركة الإيمان الذي يسبغ على كل ساعة من ساعات يومنا حرارة لم أعرف لها مثيلاً بعدها.

لم يعد من متسع في تفكيري لغير المهام التي كنا نقوم بها والتخطيط لغيرها، فتراجعت عن المراتب الأولى في صفي من دون أن يتسنى لي الوقت بالتفكير في ذلك. للحظة فقط شعرت بشيء من الندم حين استدعتني الآنسة ماري لتسألني عن السبب بعد أن شكا لها مدير المدرسة عدم اهتمامي بدراستي كما في السابق. خجلت من نظرة العتب التي رمقتني بها حين لم أجد إجابة تسوغ تراجعي، ووعدتها أن أحاول أكثر.

«مهما تكن الأهداف التي تخطط لها، يجب ألا يغيب عنك أن نجاحك العلمي والعملي هو من أسباب نجاح المهمة الكبرى.»

قالت هذا وأدارت ظهرها بسرعة ومضت وتركتني مرتبكاً. ما الذي تعرفه؟

ولكن، شيئاً فشيئاً، كبرنا على المشروع الأولي الذي وضعناه، ولم يعد رمي المناشير وكتابة الشعارات على الجدران يكفينا، فرحنا نبحث عن سبل أخرى لمواجهة الانتداب، خصوصاً بعد أن بدأت الأزمة مع الفرنسيين تشتد وتتحول تململاً شعبياً واسعاً واعتراضات وبعض مواجهات هنا وهناك. وقد هزتنا أنباء إعدام المقاوم أدهم خنجر من قبل السلطات الفرنسية في بيروت.

اجتمعنا وقررنا أن نقوم بالخطوة التي كانت تراود أفكارنا منذ بعض الوقت: أن نبدأ بسلسلة من الاتصالات بالأطراف الأخرى المعارضة، وقد كنا قبل ذلك نعترض على كل تواصل خوفاً من الخيانات، أو من الانحراف عن الغاية التي وضعناها. كنا نحتاج أفقاً أوسع يسمح لطاقاتنا التي تنامت بأن تترجم فعلاً مؤثراً في خضم الأزمة التي نعيشها. كنت أعرف الدكتور عبد الرحمن شهبندر الذي عاد حديثاً إلى دمشق بعد نفي من قبل السلطات الفرنسية، وكنت قد حضرت عدة لقاءات معه برفقة الآنسة ماري، وأعجبت بهدوئه وبقدرته على الاستماع إلى الآخرين، والخروج بعد ذلك بخلاصات ترضي الجميع وإن لم تكن صادرة عنهم. كان واحداً ممن استقينا منهم نهجنا واستوحينا من أحاديثهم بعض كتاباتنا. وربما كانت تساوره شكوك حول هذا الأمر، إذ غالباً ما كان في الجلسات، ينظر إليّ مباشرة حين يتفوه بعبارة تصلح لأن تكون شعاراً، فتستفيق المدينة في اليوم التالي لتراها مكتوبة على جدرانها أو على مناشير مدسوسة تحت الابواب... «جمهوريتنا سورية مستقلة متعاونة مع جميع البلدان العربية المستقلة»، «نحن أمة عريقة لا نحتاج إلى انتداب يدعي أنه ينقلنا إلى طور التحضر»... سيكون اغتياله في عيادته في العام 1940 تتويجاً للنهج الذي اختاره على الرغم من كل ما قُدم له من مغريات، ولم يحد عنه. جمعت من معرفتي به وبغيره من القادة غلالاً تكفيني مؤونة عمر كامل.

أخذت على عاتقي مهمة التواصل مع القادة الدمشقيين، كنت أشعر بالفضول للتعرف بشكل خاص إلى حسن الخراط، فتوجهت إلى حي الشاغور بهدف مقابلته هناك، وانطلق آخر إلى السويداء لمقابلة سلطان باشا الأطرش، وثالث إلى إدلب لمقابلة ابراهيم هنانو ورابع إلى حماه للقاء فوزي الخاشقجي...

تركني المرشد الذي كان مكلفاً بتدبير اللقاء عند مدخل الحي بعد أن سلمني إلى شاب في مثل سني عرّف عن نفسه باسمه الأول فقط: «فخري». عرفت فيما بعد أنه ابن زوجة حسن الخراط. سوف تطالعني صورته، بعد سنة من ذلك اللقاء، على الصفحة الأولى من الجريدة، مشنوقاً من قبل الاحتلال في ساحة المرجة... يومها كان مجرد شاب يشبهني. قادني بصمت عبر الشوارع المظلمة نحو بناء من طابقين تبين لي، حين دخلناه، أنه مصبغة. انتظرت وحدي في إحدى الغرف، تحت ضوء شمعة وضعت في الزاوية، نحو ما يقارب نصف الساعة. ثم سمعت وقع أقدام، فسرت ارتعاشة في جسدي: أخيراً سأقابل الحارس الذي انبثق من قلب الشعب ليصبح أسطورة. كنت أدرك أن اللحظات التي أعيشها تاريخية، فقررت أن أحتفظ في ذاكرتي بكل تفاصيلها، بدءاً من مظهر القائد حين دخل إلى الغرفة بقامته الطويلة ووجهه الحنطي وعينيه السوداوين. بذلت جهداً لأرفع نظري نحو تلك العينين، ففوجئت بنظرتهما الطيبة، تعلقت بها حتى كدت أنسى أن أمد يدي لأصافحه، وبقيت يده معلقة في الهواء لبضع ثوان. ابتسم لي مشجعاً ودعاني إلى الجلوس على كرسي بمقابله. ترددت قليلاً على الرغم من كل التحضيرات التي صغتها في ذهني قبل المقابلة، فشجعني بعبارة بدت لي سحرية إذ صدرت عن هذا الرجل الأسطورة: «يسرني أن أتعرف إلى شاب مثلك حمل هم الوطن وقرر أن يساهم في تحريره.» فانفتحت القنوات وسالت الثقة ورحت أتكلم بحرية، موجزاً للخراط قصة الفريق، منذ انطلاقته، إلى مساهمتنا المتواضعة في معركة ميسلون، ومن بعدها، عملنا في إطار المقاومة الفكرية، حتى شعورنا بالحاجة إلى الانخراط في مشروع أكبر قادر على إنجاز التحرير الذي نتوخاه. أصغى إليّ باهتمام

ظاهر، وكان يومئ برأسه من وقت إلى آخر، ويتلفظ بكلمة أو عبارة تسهم في استمرار الحديث وتطوره إلى نقطة النهاية.

«ها نحن الآن ننتظر إرشاداتكم لنعرف ما الذي علينا أن نفعله لنشارك في العمل المقاوم بشكل فعال.»

سألني عن السلاح الذي كان بحوزتنا إبان معركة ميسلون، فقلت له إننا خبأناه في إحدى المغاور في تلة قريبة.

- هل يمكن أن نعرف المكان بالتحديد؟ نحن نحضر لعمل ما سيكون لكم دور فعال فيه، ولكن علينا أن نجمع ما لدينا من الأسلحة، نعيد توزيعها على الجميع فيما بعد.

تساءلت للحظة إن كان يحق لي أن أدلي بمكان المخبأ من دون أن أستشير باقي أعضاء القيادة، ولكن الخراط قدم لي عربوناً عن ثقته بمقابلتي على الرغم من الأخطار التي تحدق به، فهو مطلوب من السلطات التي أعلنت عن جائزة قدرها مئة ليرة ذهبية لمن يأتي به حياً أو ميتاً. هل يعقل أن أقابل ثقته بالتردد؟ كان ينظر إليّ منتظراً إجابتي، كأنه يعرف تماماً ما يساورني من أفكار. أطلعته على المعلومات التي طلبها، فقال لي:

- هذا السلاح لكم. سيرافقك بعض الرجال إلى المكان ليتأكدوا فقط من صلاحيته لتكونوا على استعداد لما سيأتي.

ثم نهض، فنهضت ومددت يدي للسلام ولكنه احتضنني وربت على كتفي معبراً عن سروره بلقائي، معلناً أننا سنكون فرقة مشاركة في الثورة القادمة. وغادر مسرعاً بعد أن أوصاني بالتواصل الدائم مع الرجلين اللذين كلفهما بمرافقتي إلى المغارة.

هذان الرجلان توليا مهمة تدريبنا على القتال، وقد كانا تدربا على يد حسن الخراط الذي كان معروفاً بقدراته القتالية الهائلة وبشكل خاص مهارته في إصابة الهدف عندما يطلق النار.

أحتفظ إلى اليوم بصورة له قصصتها من إحدى الجرائد التي كانت تعلن عن الجائزة، وضعتها في إطار نحاسي على أحد رفوف مكتبتي، أحاورها من وقت إلى آخر، أطرح عليها الأسئلة الموجعة، أطمئن إلى مصير وطن سيظل يرى فيه النور، من جيل إلى جيل، رجل مثله، يرفع هامته، فتنجلي ظلمات الخيانة والغدر. لم يكون من مثله وحيداً؟ لم تتضافر الظروف لتوقع به؟ لم يموت باكراً جداً، بينما يستمر الآخرون في سرقة الهواء الذي نتنفسه طويلاً جداً؟

يجب أن أبدأ بالكتابة عن الثورة السورية الكبرى. أبدأ ثم أحجم. ماذا لو نسيت واحداً من المشاركين الذين تحولوا، على وقع الهتافات، أو في صمت الهجمات الليلية، إلى جبابرة اجترحوا المعجزات؟ كيف أروي مساهمتي المتواضعة من دون أن أسرق شيئاً من وهج بطولاتهم التي لم تجد من يرويها؟ ماذا لو لم تتسع قصتي لكل تفاصيل الأعمال الحربية في كافة المناطق حيث انتشرت؟ ماذا لو اتهمني من يغوون دس التفاصيل المربكة في الصورة الكبرى بالتقصير أو التزوير؟

رداً عن سؤال لصحيفة ألمانية، قال سلطان باشا الأطرش عن الثورة:

«لا يوجدعلى هذه الأرض حجر إلا وقلبته حوافر خيلنا، ولا توجد حفنة تراب لم تروها دماؤنا. لكل مجاهد فينا قصص كثيرة من قصص البطولة والشهادة والفداء وليست قصة واحدة، ويلزمنا لروايتها تاريخ كامل، فكيف يمكن لي إيجازها».

إذا كان القائد الأعلى للثورة قد عجز عن حصرها داخل حكاية واحدة، فكيف لي أن أفعل؟

لست مؤرخاً. أنا مجرد كاتب، ربما من الأفضل أن أكتفي برواية تجربتي من الزاوية التي كنت أخوض فيها معركتي، مع فرقة أبناء الحياة، بقيادة من اخترناه قائداً، حسن الخراط.

مناوشات صغيرة ومعارك كثيرة سبقت الإعلان الرسمي للثورة في الواحد والعشرين من شهر تموز للعام 1925، حيث صدر بيان عن سلطان

باشا الأطرش، أذكر مما جاء فيه:

«أيها العرب السوريون تذكروا أجدادكم وتاريخكم وشهداءكم وشرفكم القومي، تذكروا أن يد الله مع الجماعة، وان إرادة الشعب من إرادة الله، وأن الأمم المتمدنة الناهضة لن تنالها يد البغي، لقد نهب المستعمرون أموالنا واستأثروا بمنافع بلادنا، وأقاموا الحواجز الضارة بين وطننا الواحد، وقسمونا الى شعوب وطوائف ودويلات...»

كانت هذه البداية... وكانت بالنسبة إلي نهاية حقبة مباركة تعافيت فيها من جراح طفولتي بين من أحاطوني بمحبتهم، حتى أصبحت ما أنا عليه.

قبل أن أغادر المنزل الذي كنت أتشارك فيه مع عدد من زملاء الدراسة، لألتحق بصفوف الثوار، أرسلت الآنسة ماري في طلبي. كانت لقاءاتي بها قد تباعدت قليلاً في الأشهر الأخيرة لانشغالي في متابعة شؤون أبناء الحياة وفي التحضيرات للثورة، ولانشغالها في اللقاءات التي كانت تخط مستقبل الوطن السياسي والفكري. كانت جالسة بانتظاري في الدار وحدها. لم تتغير خلال كل تلك السنين، وجهها الدافئ، عيناها الثاقبتان، ثيابها البسيطة، تلك الطاقة التي تنبعث منها، صلابتها وطيبتها، كتاباتها التي تحمل الرسائل نفسها... كانت المرساة التي ربطت حياتي التائهة على الأرض الجديدة.

بدأت بالحديث ببساطة، كأنه تتمة لنقاشات سابقة، وكأنني كنت أعلم أنها تعلم.

- ترحل اليوم؟

- غداً صباحاً.

- من الأفضل أن تغادر قبل المساء. قيل لي إن أسماءكم صارت معلومة لدى الفرنسيين.

- جميعنا؟

- لا أعرف بالتحديد، ولكن الأخبار التي وصلتني تشير إلى مجموعة من الشبان متهمة بالإخلال بالأمن.

- حسناً سأخبر الآخرين.

نهضت لأغادر على عجل، فنهضت، ومدت إلي يدها وفيها مغلف صغير أسمر.

- مساعدة صغيرة للسيد حسن الخراط. قد يبتاع بثمنها بندقيتين أو ثلاثاً.

كنت أعرف تماماً أن المجلة تعاني منذ أشهر من أزمة مالية، ولكنني لم أجرؤ على سؤالها عن مصدر ذلك المال. أي سوار ذهبي أخير؟ أي قطعة أرض من إرث والدها؟ هل بقي لها ما يؤمن لها حياتها؟ في هذا أيضاً لم تتغير منذ عرفتها. طبعت على جبيني قبلة دافئة وقالت: «فلتعد إلينا بالسلامة ولتنجحوا في ما تسعون إليه.» ابتسمت وأجبت، مقتبساً عنوان مقال كانت قد كتبته منذ ثلاث سنوات: «كل ما يتمنى المرء يدركه.» استدرت عند الباب لألقي عليها تحية أخيرة فرأيت دمعتين تتدحرجان على وجنتيها. كان مقدراً لي أن ألقي طفولتي المنهكة في ظل هذه الشجرة الوارفة التي قدمت فسحة حياة لكل من مر بها.

أشجار أخرى مررت بها فحولت صحرائي إلى تلال خضراء خصبة، منها حسن الخراط.

كنا حوالي الأربعمئة مقاتل، سرنا خلفه صبيحة الثامن عشر من تشرين الثاني في العام 1925 لندخل دمشق عبر حي الميدان. قطعنا الشوارع وسط ترحيب الأهالي الذين اصطفوا على جانبي الطرقات وهم يهتفون باسمه، وهو، على جواده الأسمر الأصيل، يحييهم ويهتف بنا وبالجموع قائلاً: «يلا يا رجال، يلا يا أسودة! يلا يا أهل النخوة والحميّة، يلا نقاتل الفرنساوي.» كانت السلطات الفرنسية قد أحرقت منزله قبل أسبوع ووزعت منشوراً أعلنت فيه إسقاط حقوقه المدنية.

ونحن كنا نتحول، تحت نظراته المشتعلة وابتسامته الواثقة، إلى أسود لا يهابون الموت.

في الوقت نفسه، دخلت فرقة أخرى من جهة حي الشغور، والتقينا قرب قصر العظم مركز إقامة موريس ساراي، المفوض السامي، الذي كانت الخطة تقضي باختطافه، وتسللت برفقة مجموعة من المقاتلين من الجهة الخلفية نحو مكتبه، بينما اشتعلت المعركة بين الثوار وحامية القصر، ولكننا لم نجده هناك، كان مكتبه فارغاً، وهو لم يحضر في ذلك اليوم. مصادفة أم وشاية؟ لم يكن الوقت يسمح بالتوقف للتساؤل. كانت المعركة على أشدها، وفجأة اندلعت النيران في القاعة الرئيسة، والحمامات الساخنة، وأصدر الخراط أوامره بالعمل على إطفاء النيران وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الآثار. كان هذا أصعب ما واجهنا، إذ كان الجنود الفرنسيون يتربصون بنا ويطلقون علينا النار فيما كنا نقوم بمهمتنا تلك. سقط حولي الكثير من الشهداء، من بينهم تلاثة من فريق أبناء الحياة. كانت الأنباء تتوالى عن إرسال الفرنسيين تعزيزات إلى المدينة القديمة واقتحامها سوق الحميدية حيث تصدى لها قبضايات الحارة وزعماؤها. وبدا الوضع مطمئناً، إذ، على الرغم من عديد القوات الفرنسية، تمكن الثوار من منعهم من التقدم ومن محاصرتهم في عدد من الأحياء.

فجأة، عند الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم الطويل، علت صيحة تعلن بفرح عن انسحاب الجنود الفرنسيين من المدينة القديمة، وبدأنا بإطلاق الهتافات. ولكن صوت الخراط ارتفع كهدير صاعقة شقت صدورنا المبتجة. أمرنا بالتراجع والاحتماء في الأبنية المجاورة. ما كدنا ننفذ أوامره حتى راحت القذائف تنهال علينا كأنها تعلن نهاية العالم. خيل إلينا أن بوابة الموت قد فتحت، وسوف تبتلعنا من دون أن نتمكن من المقاومة. كيف نقاوم تلك الشياطين الهائلة التي تعيث الدمار في البيوت والمحال من حولنا، ونحن لا نملك أي سلاح يوازيها؟

استمر القصف طوال يومين. خرجنا بعدها لنتفقد أحياء مدينتنا، فكان المشهد المهول: سوق مدحت باشا والبزورية غطاهما الركام والزجاج

المحطم والبضاعة المتناثرة، سقف سوق الحميدية انهار على المحال التجارية... أكثر من مئة وخمسين منزلاً احترقوا في مناطق باب الجابية والشاغور والخرابة... وقامت القوات الفرنسية التي عادت بعد توقف القصف بنهب بيوت العائلات الميسورة وبأخذ الحلي والسجاد والزخارف والمفروشات. أصدر الجنرال سراي أمرا بإحراق قرى جرمانا، وزبدين، وداريا، والمليحة، كما أضرم النار في جميع منازل إحدى قرى الأمير كاظم الجزائري، فأصبحت كوماً من الرماد.

والجثث في كل مكان، جثث من لم يجدوا الوقت الكافي للهرب. ساعدنا في انتشال بعضها وفي إسعاف الجرحى قبل أن ننسحب. قدر عدد القتلى بحوالي الألف وأربع مئة. بعدها بوقت قصير، أغارت الطائرات الفرنسية على الاحياء نفسها التي سبقت أن قصفتها مدافعها مسببة حريقاً أكمل مهمة الدمار.

بعد مرور عام على تلك الحرب، سوف يلقي أحمد شوقي قصيدة ستعيد الأحزان التي دفنّاها في أعماقنا إلى ضوء ذاكرة لا ترحم ونصل الألم الذي لا يشفى.

سـلامٌ مـن صَبا بَرَدى أَرقُّ ودمـعٌ لا يُـكَفْكَفُ يا دِمَشْقُ

ومـعذِرة الـيَرَاعةِ والقوافي جلالُ الرُّزْءِ عن وصْفٍ يَدِقُّ

لـحـاها اللهُ أَنـباءً تـوالتْ عـلى سَـمْعِ الوليِّ بما يَشُقّ

يُـفصّلها إلـى الـدنيا بَرِيدٌ ويُـجْمِلُها إلـى الآفاق بَرْق

تـكادُ لـروعةِ الأَحداثِ فيها تُخالُ من الخُرافةِ وَهْي صِدْق

وقـيل: مـعالمُ التاريخ دُكَّت وقـيل: أَصابها تلفٌ وحَرق

رباعُ الخلدِ وَيْحَكِ ما دَهاها؟ أَحـقٌّ أَنـها دَرَستْ؟ أَحَقٌّ؟

تلك الحرقة التي ما زالت تلهب أحشائي، تستيقظ على وقع قصيدة أو نشيد، أو لحن حزين، فتعيد إليّ صور من غادروا، وتعيدني إلى ساحات المعارك حيث كان أزيز الرصاص يختلط بأصواتهم، بهتافات الخراط الذي بقي يحثنا على القتال، فتعيد أفئدتنا صدى نداءاته، حتى غدرته تلك الرصاصة التي اتجهت مباشرة نحو صدره. أيعقل ان يرحلوا كلهم ويبقى الوطن المحرر لمن اختبأ ولمن عارضهم في خياراتهم، وأيضاً لمن باع واشترى؟

كنت إلى جانب حسن الخراط حين سقط. صرخ ابراهيم النمار: «ساعدني على حمله!» حملناه حتى ابتعدنا قليلاً عن مرمى النيران، ووضعناه خلف صخرة. كان نبضه ضعيفاً وكان فاقداً وعيه. «فلنبعده من هنا.» ارتأى عدد من الرفقاء الذين اجتمعوا حولنا أن ننقله إلى قرية ببيلا القريبة، فوضعناه فوق حمالة كنا قد حضرناها لنقل الحرحى وسرنا به. كان دمه يسيل غزيراً ويرشح من الحمالة فينهمر فوق التراب. في أي وقت من مسيرنا فارق الحياة؟ لست متأكداً، ولكنني أذكر أننا، عندما وصلنا إلى القرية، كنا نعرف، من دون أن نفحص نبضه، من دون أن نتوقف لننظر إليه، أنه غادرنا. تباطأت خطواتنا وطأطأنا رؤوسنا ولم نتكلم. ولكن خبر استشهاده كان قد سبقنا إلى القرية، لم نعرف كيف. كان المختار الملقب بأبي علي الضبع ينتظرنا عند تخومها وبرفقته مفتي الثورة السورية وشيخ الطريقة القادرية محمد حجازي الكيلاني وشخصان آخران. وضعنا حملنا الثمين على الأرض ووقفنا أمامهم بتهيب. قال الشيخ محمد حجازي:

- لن نسمح لهذه الفاجعة أن تقوض معنويات قوى الثورة، سندفنه هنا، تحت هذه الشجيرات، وسنشيع خبر إصابته بجروح ونقله إلى جبل العرب للمعالجة.

أنا شاركت في حفر قبره في أصيل ذلك اليوم في السادس عشر من كانون الأول، وأنا ساعدت رفقائي على حمله وإيداعه في تلك الحفرة بعد أن صلى عليه الشيخ الكيلاني، وأنا رددت التراب فوقه بينما كنت أبكي كالأطفال... وأنا سأسمع الأسئلة حول صحته والدعوات بشفائه وسأصمت كبئر شح ماؤها حتى نشفت، وتشققت جدرانها. وسأسمع لاحقاً، بعد أن

انكشف السر، الأساطير التي ستزهر في أحياء دمشق وبيروت، رافضة تصديق خبر موته، ناسجة تكملة للحلم الذي غاب. ستؤكد لي فتاة التقيتها في يبرود أنه حي وأنه شكل حكومة مؤقتة، وستسألني الآنسة ماري إن كان صحيحاً ما يقال حول أنه عولج في مستشفى للثوار يديره الدكتور شهبندر وأنه يتماثل للشفاء، وأتساءل إن كان من المفيد أن أقطع عليهم الحلم، فأصمت، مجدداً. أي مستشفى؟ أي مقومات للصمود في وجه الجيش الفرنسي المنظم والمسلح بأحدث العتاد؟ سمعت هتافات في التجمعات: «يا حسن لويش تنادي.... دبّحنا فرنسا في بطن الوادي، أوم يا حسن لا تهتم.... أهل الشام بتشرب دم.» قرأت نداءً باسمه في إحدى الصحف يطالب فيه برأس دو جوفينيل الذي خلف ساراي... وكانت البئر تتسع في داخلي حتى تكاد تبتلعني.

كما سمعت قصته تغنيها مجموعة من الأطفال بينما يركضون داخل الأسواق القديمة، ورأيت الجنود الفرنسيين يطاردونهم ويعتقلون أحد قادتهم ويقودونه مكبلاً إلى سجن القلعة وهو يتابع الغناء، فرشح بعض الماء إلى صدري وانتعشت جدران البئر.

ولكن وجودي في دمشق صار يشكل خطراً على حياتي، بعد أن خمدت الثورات وغادر قادتها إلى الأردن والسعودية، وغادر معظم الرفقاء من أبناء الحياة، ولم أعد قادراً على تحمل عيشة التخفي والاختباء في منازل أصدقاء الآنسة ماري نهاراً والتجول ليلاً بحذر شديد، فقررت أن أرحل بدوري متوجهاً إلى بيروت. رسم كل رحيل خطوطاً خفية لقصتي، ففي كل مرة لم أكن أدرك كم سيطول ويقودني نحو طرقات نهائية.

* * *

استقبلني آرام بحنو الأخ الأكبر وسوسن بفرح الأخت الصغرى. لم يطرحا الأسئلة، لم يعلقا على ما ورد إلى مسمعهما عن مشاركتي في المعارك، اكتفيا بالاحتفاء بي وبالسعي إلى الترفيه عني. كنت كمن انتقل إلى عالم آخر، ففي بيروت، وبشكل خاص في الدوائر التي كانت ترتادها عائلة السيد بوغوس، كان الأمن مستتباً، ولم يكن الانتداب مصدر إزعاج لأي

من رجال الأعمال الذين يتحلقون ليدخنوا السيجار وليتحدثوا في السياسة كأنها لعبة يمارسونها للتسلية، أو لنسائهم المشغولات بشراء الألبسة وبإعداد الولائم وبالتذمر من الخدم...

أخذني آرام إلى دوامة هذا العالم الذي لا يهدأ: سهرات ودعوات ونزهات ورقص وموسيقى وأطعمة غريبة وشهية وسيارات فارهة... ونساء. مزاح ومداعبات وقبل مسروقة. أعترف أنني أصبت بما يشبه حال السكر في بدايتها، عندما تشعر بخفة الأوزان، خفة جسدك، وخفة أفكارك، خفة مشاعرك، وخفة ما كان يبدو لك عبئاً... انقدت وراء آرام في يومياته المحمومة، المزدحمة بمشاريع اللهو، وبالتخطيط لمزيد من المشاريع، كأننا نسابق الزمن، نتحداه، ولا نتعب. كان تتويج هذا الصخب قرار آرام اصطحابي إلى أحد الفنادق في سوق المتنبي حيث عرفني إلى نجمة الشارع الذهبية، اليونانية ماريكا. سلمني آرام لها مشيراً إلى أنها «المرة الأولى»، فابتسمت وقالت إنها ستعتني بي، بينما وقفت مذهولاً أمام جمالها. أمسكت بيدي واقتادني نحو الغرفة.

كانت تلك المرة الأولى والأخيرة، فالليلة معها كانت باهظة الثمن، ولم أرض باستنزاف كرم صديقي على الرغم من شوق جسدي لليلة أخرى مع الرائعة ماريكا. في المرات الأخرى اكتفيت بفتيات أقل جمالاً وخبرة، يعملن تحت إدارتها.

بعد مرور شهرين على وجودي في بيروت، بدأت أشعر بحاجتي لاتخاذ قرار بشأن مستقبلي. لم تكن العودة إلى دمشق متاحة في الوقت الحاضر، إذ أن أعين السلطات الفرنسية هناك كانت ما زالت مفتحة، تبحث عن بقايا الثوار لتعتقلهم وتلحق بهم عقوبات قد تصل إلى الإعدام، أما في لبنان، فلم يبد أن المسؤولين الفرنسيين يشعرون بحاجة إلى ممارسات قمعية. بالإضافة إلى الحماية التي كان السيد بوغوس قادراً على تأمينها لي، إذ كانت علاقاته السياسية والاجتماعية قد تمددت على أعلى المستويات، فأصبح واحداً من أسياد المرحلة، وكان يعاملني بكل مودة ويفرح لوجودي إلى جانب آرام، ويدعوني على الأقل مرتين في الأسبوع إلى العشاء، «حتى

يكتمل نصاب العائلة»، كما كان يقول. لا أعرف إن كان على علم بنشاطاتي الثورية السابقة، أم أن آرام أخفى الأمر عنه.

آرام الذي ترك الدراسة مبكراً وساعد عمه في معمل الخياطة، فتح بمساعدته محلاً للأقمشة في سوق الطويلة، وازدهرت أعماله وبدأ يقوم بصفقات تجارية مربحة في هذا المجال الذي بات خبيراً فيه. عرض عليّ أن أعمل معه، فهو يسافر كثيراً ويحتاج إلى من يدير المحل في غيابه. بدا لي هذا الحل مناسباً، وحياة تشبه تلك التي اختارها آرام مريحة. وافقت. أما عملي الصحفي الذي كان، في السنوات الأخيرة، قد أصبح مهنة بالنسبة إلي ومصدر رزق، فقد اخترت أن أعلقه مؤقتاً، خشية من لفت انتباه الفرنسيين، مع اهتمامي بالمعارك التي كانت تخوضها الصحافة الوطنية في بيروت ضد قانون فرنسي يشبه ذلك الذي طبقه العثمانيون. اخترت حينها أن أجلس في مقاعد المتفرجين المريحة وأفعل ما يفعلون: أراقب وأنتقد، لا أوافق في معظم الأحيان الآخرين في تحركاتهم أو آرائهم...

استأجرت غرفة صغيرة في فندق وباشرت حياتي الجديدة بكل قناعة.

لا ريب أنني توقعت أن يأتي ما يعكر صفو تلك الحياة، ولكنني خشيت من عامل خارجي، مرتبط بالسياسة يشد الخيط الذي يوقظ ما سعيت إلى إخماده. لم أتوقع أبداً أن تنطلق العاصفة التي ستطيح بكل شيء من داخلي.

ديترويت 1972

وصلت في الساعة السادسة والنصف، وجلست إلى طاولة قرب النافذة. ترددت قبل أن أقرر أنني لست جائعاً وأنني لن أتناول طعام العشاء، ربما فيما بعد. النادلة الشابة مربكة ولا تكاد تفهم ما يطلبه منها الزبائن. تركض بين الطاولات وترتكب الأخطاء فتوصل طلبية طاولة إلى أخرى. وحين جلبت لي فنجان القهوة الذي طلبته، وضعته على الطاولة بحركة سريعة فسكبت قليلاً منه في الصحن. احمر وجهها وراحت تعتذر، فمازحتها قائلاً إن الإكثار من القهوة لا يناسبني في كل الأحوال. في أول مراهقتي، كنت أوقع كل ما أحمله، أكسر الأواني، أسكب الطعام والشراب فوق الطاولة أو على الأرض، وهذا ما كان يسبب الغضب لوالدي: «ألا يمكنك أن تنتبه لما تفعله؟» حتى حين كان لا يعلق على أخطائي، كنت أشعر بحنقه وانتقاده.

في الساعة السابعة تماماً، فتح باب المقهى ودخل رجل عجوز بمشية متمهلة، ثم توجه إلى طاولة في الزاوية. أشار إليه صاحب المقهى، مؤكداً أنه الشخص المطلوب. يا إلهي! كم تغير! أبي لم تغيره السنين كثيراً... أم أنني لم ألاحظ التغيير.

توجهت صوبه، وقبل أن يجلس، بادرته بالسلام. «أهلاً» عرفته بنفسي، فابتسم كأنه كان ينتظرني، وصافحني بحرارة. لم يبدأ كما كنت أخشى حديثه بالكلام على أبي وصداقتهما، بل بادرني بالسؤال عن بروك وكارولاين وعملي. كان يعرف كل شيء عني وعن عائلتي... كانت مقدمة حسنة للحديث الصعب الذي كنت أريد الخوض فيه.

ضحك الأستاذ يوسف طويلاً حين أسرّيت إليه بشكوكي بعد أن أخبرته قصة الكتاب، كانت ضحكته تضرب على كل عصب من اعصابي، حتى هممت بالنهوض والمغادرة. ولكنه سكت فجأة وبدأ يتكلم بصوت يستعد للبكاء، مكيلاً المدائح لصديقه، فقلت في نفسي إن حظي السيئ قادني نحو هذا الرجل الذي ضربه خرف الشيخوخة. ولكنه ما لبث أن تمالك نفسه وقال:

«والدك ليس ايليا والد يوحنا ووردة وعيد. والدك هو أنيس، ابن عمه! كان فاراً من السلطات العثمانية، فعمل، بمساعدة أصدقاء له، على استخلاص جواز سفر باسم ابن عمه سافر به إلى أميركا، وهنا احتفظ بالاسم المكتوب على جوازه.»

دارت الدنيا من حولي. سألته:

«ابن عمه الذي اختفى بعد أن اقتاده الأتراك إلى مكان مجهول؟»

«اقتادوه إلى حيث كانوا يأخذون كل خصومهم، أو حتى كل من كانوا يشكون في ولائهم للعثمانيين: الديوان العرفي في عاليه.»

كان عليّ أن أصمت قليلاً وأن أجعله يسكت بدوره لأتمكن من إعادة ترتيب أفكاري، ولكنه تابع:

«والدك يعدّ بطلاً في مقاييس ذلك الزمن...»

لم أتمالك نفسي. نهضت ومشيت نحو الباب حيث رحت أتنشق الهواء بصعوبة. اقترب مني صاحب المقهى متسائلاً إن كنت بخير، فأجبته أن كل شيء على ما يرام، ولكن صوتي لم يقنعه. رمقني بنظرات استغراب قبل أن يبتعد. أما الأستاذ يوسف، فبقي ينتظرني هناك على كرسيه. كيف سأعيد قراءة أحداث هذين اليومين وترتيب مشاعري؟

عدت إلى الطاولة وسألت الأستاذ يوسف:

- هل أنت متأكد؟

ابتسم ابتسامة بدت لي ساخرة وقال:

- لو كانت والدتك على قيد الحياة لقلت لك أن تسألها.

- كانت تعرف؟

- بالطبع! أخبرها والدك منذ أن التقيا بكامل قصته، ولكنه اشترط عليها أن لا تعود إلى ذكر ذلك الماضي، بخاصة بعد أن جاء من يخبره عن موت كل أفراد عائلته، بمن فيهم أولاد ابن عمه الذين أحبهم كأولاده. وربما كان ضياع مكتبته صدمة كبيرة بالنسبة إليه توازي الصدمة التي تلقاها لدى سماعه نبأ اختفاء عائلته بالكامل.

- وكيف يكون ذلك؟ ليست إلا كتباً. موت ومجاعة وبيوت تُخَرَّب وهو يهتم لكتبه.

- لم تكن كتباً عادية. كانت واحدة من وسائل النضال لديه، إذ كان يدون فيها، على كل صفحة تحمل العدد صفر، بين السطور، وبخط صغير، تأريخاً وتوثيقاً لكل ما يحصل من أحداث في المنطقة، على الصعيدين السياسي والاجتماعي. إذ كان القمع يطبق على كل من تسول له نفسه تدوين مجريات المجاعة وآثار الحرب على أبناء الشعب السوري.

- تلك الكتب أحرقتهم زوجة ابن عمه لتدفئ أبناءها في ليالي الشتاء الباردة... هذا ما ورد في الكتاب.

- حقاً؟ يا لسخرية القدر! أحرقتهم عليا... المرأة التي أحب. وراح يهز رأسه هزة تتراوح بين المرارة والتعجب.

- عليا المرأة التي أحب... ما معنى ذلك؟

- أحب أنيس عليا، والدة يوحنا الكاتب، منذ أن وقعت عليها عيناه، ولكن ابن عمه سبقه إلى مصارحتها وطلب يدها، فبقي في الظل، يتعذب بصمت، ولم يتكلم حتى بعد رحيل ابن عمه، رغم الأمل الذي استفاق في قلبه. كانت عليا حبه الاول، وقد أحب أولادها كما لو كانوا له.

- وهل كانت أمي تعلم؟

- أعتقد ذلك. لم يخف عنها شيئاً منذ البداية. وكانت عليا قد أصبحت طيفاً جميلاً وحزيناً من ماض غدا بعيداً عنهما.

- ولكنه كتب لها شعراً.

- كل الشعراء يفعلون ذلك، وكانت أمك بالتأكيد تفضل أن ينظم شعراً لذكرى امرأة رحلت عن هذه الدنيا على أن يكتب لجارة أو زميلة له في العمل... وراح يضحك ضحكة انقلبت سعالاً حتى ظننته على وشك أن يصاب بالاختناق.

- ولكن كيف تمكن من الهروب والمجيء إلى هنا؟ وما الذي حصل لابن عمه، والد يوحنا؟ وكيف وصل هذا الكتاب إليه؟ أين كاتبه؟

- أسئلة كثيرة، ربما لن تكفي سهرة واحدة للإجابة عنها.

- يمكنك أن تختصر.

قلت هذا، ثم ندمت على فظاظتي. ولكنني لم أجد لدي ما يكفي من الصبر في هذه الظروف لتحمل مزاج عجوز يبحث عن مستمع. هو لم يبد متضايقاً. ربما كانت مهنة التعليم قد علمته أن يصبر على كل ما يصدر من أولاد أو شباب يظنون أنهم يملكون الحق في قول ما يحلو لهم. تذكرت أننا أحياناً، كنا نبالغ في التهريج وفي الفوضى لكي نجعله يخرج عن طوره، ولم نكن ننجح.

- حسناً، نختصر. من أين تريد أن نبدأ؟

لم يبد لي الترتيب الزمني مناسباً للظروف ولشوقي لاكتشاف الحقيقة طرحت السؤال الأكثر إلحاحاً:

- كيف وصل الكتاب إلى أبي؟ وأين كاتبه الآن؟

- أعتقد أن يوحنا عاد إلى لبنان، بعد أن زار قبر والده، فزوجته مريضة و...

- قبر والده؟ أين؟ هنا؟

- في مدينة أكرن على بعد ما يقارب الأربع ساعات من هنا. هناك أمضى سنواته الأخيرة وتوفي منذ سنتين.

- هل التقى به أبي فور وصوله إلى أميركا؟

- على العكس. بحث عنه طويلاً، حين وصل، ولم يجده. كان ايليا قد ترك العمل في معمل فورد حيث لم يمكث، على ما قاله زملاؤه لوالدك، أكثر من ستة أشهر. ايليا انغمس، منذ وصوله، في حياة ماجنة، نساء وكحول... وبعض الأعمال المشبوهة، ما أدى إلى طرده من العمل. مضت سنين طويلة قبل أن يتمكن والدك من اقتفاء أثره، فوجده أخيراً عجوزاً مريضاً، يعيش حياة أقرب إلى التشرد. أودعه في مركز متخصص في أكرن حيث كان يزوره مرة في الشهر.

- هذا إذن سبب غيابه...

- كنت أعجب لوفائه ولإصراره على الاعتناء بهذا القريب الذي ترك عائلته للجوع والموت، ولم يسأل عنهم يوماً. كان يجيبني: هو عائلتي الوحيدة.

- ويوحنا، كيف وصل إليه؟

- أظن أنه كلف واحداً من معارفه أن يبحث في سجل العاملين في مصنع فورد، فعثر على اسم والدك وعنوانه وظن أنه أبوه. سافر إلى هنا ليحل تلك المسألة العالقة مع ماضيه، وفوجئ بلقاء من كان يسميه بالعم أنيس. أخبرني أبوك عن ذلك اللقاء، عن المعلومات التي تبادلاها، عن الدموع والماضي الذي قبض على قلبيهما.

- وكيف تمكن من الفرار؟

- القصة ستطول...

- عندي كل الوقت إن لم تمانع.

- أبداً. ولكن هذا يستحق زجاجة ثانية من البيرة.

طلبت كأساً من الويسكي. أحتاج مشروباً قوياً يعينني على إيقاف الدوامة التي تدور في رأسي من دون كلل. تمهل الأستاذ في شرب البيرة، عدة جرعات، كأنه يمتحن صبري، قبل أن يعاود الحديث:

«في السجن في عاليه عانى والدك كثيراً من البرد القارس، إذ كانت النوافذ غير محكمة الإغلاق وكان الهواء الذي يصفر في الخارج يتسرب من شقوق الخشب، ولعل ضرب السياط على جسده المنهك في اليومين الأولين ساهم في إضعافه، فأصابه المرض وبقي طريح الفراش مدة شهر. كان حارس الزنزانة لا يجرؤ على الاقتراب منه خوفاً من أن يكون مصاباً بالتيفوس وتنتقل عدوى المرض إليه، فكان يضع صحن الطعام من بعيد على الأرض ويدفعه نحوه. كانت قواه لا تسمح له دائماً بإمساك الصحن وتناول الطعام.

تابع الأستاذ يوسف:

«حين حدثني والدك عن الليلة التي سبقت الإعدام، رأيت فيه تبدلاً، كأنه غدا رجلاً آخر لا أعرفه: اختفى ذلك الوقار الذي كان يتمتع به والذي كان يجعل من لا يعرفه جيداً يظنه قسوة قلب ولا مبالاة، وراحت أنامله ترتجف ثم انتقلت الرعشة إلى كافة أنحاء جسده. أما صوته، فكان يشبه صوت محتضر، يعلو قليلاً ثم ينخفض كأنه صدى لخفقات قلبه المضطربة. قال:

«كانت الدقائق الأطول في حياتي، إذ كان الجندي الحارس يدعو المحكومين، الواحد تلو الآخر إلى ارتداء ثيابهم. وكان أبشع ما في الأمر شعوري الذي كان يتراوح بين الحزن على الرفقاء الذين يسميهم الحارس، وبين شعور غريزي بالارتياح لعدم ذكره اسمي... كيف أمحو مثل هذه الذكرى ما حييت؟ نجوت ولكنني حملت معي شعوراً بارتكاب خيانة بحق من

رحلوا. كان الباب يفتح كل ربع ساعة وينادي الحارس على محكوم: «سعيد عقل، ألبس ثيابك واخرج!»، «الشيخ أحمد طباره، ألبس ثيابك واتبعني!» منهم من رحل بصمت، من دون أن يجرؤ على النظر إلينا، منهم من أوصانا بايصال سلامه إلى أهله. منهم من بكى وأبكانا، ومنهم من خرج مبتسماً وهو يلعن الأتراك، أو ينشد: «نحن أبناء الأولى شادوا مجداً وعلا».

أما أبوك، فقد حكم عليه بالنفي إلى ديار بكر. في أثناء انتقالهم، أخبر الحراس أن زميله في الزنزانة مات من جراء إصابته بالتيفوس، وأنه بدأ يشعر بأعراض المرض، فما كان منهم إلا أن ابتعدوا عنه خوفاً وطلبوا منه أن يسير في المقدمة، على بعد أمتار عديدة من القافلة. عندما وصل إلى منعطف، وقبل بزوغ الفجر بقليل، تمكن من الاختباء خلف بعض الأشجاروانتظرهم حتى مروا وأطلق ساقيه للريح راكضاً في الاتجاه المعاكس. ولكن جندياً تنبه لغيابه وعاد أدراجه، فرآه يركض في أسفل الوادي فأطلق عليه النار وأصابه في كتفه، ولكنه بقي يركض، حتى سقط مغشياً عليه قرب مزرعة صغيرة حيث وجده صاحبها، فجره إلى الداخل، وداواه وضمد جرحه، ولكنه لم يجرؤ على السماح له بالبقاء خوفاً من بطش الأتراك، فنقله في عربة مغطاة بأكوام الحطب إلى غرفة كاهن يدعى جورج... لم أعد أذكر اسم عائلته.

«في الأيام العادية، لم يكن هذا الكاهن يجرؤ على مساعدة سجين فار من الأتراك، ولكنه كان عائداً من الديوان العرفي حيث أدى صلاة الفصح للمساجين المسيحيين، وشهد على معاناتهم ورأى في عيونهم توسلات مكتومة، وشعر بعجزه عن المساعدة، كما عجز فيما قبل عن مساعدة سجينين من آل الخازن سيقا إلى الإعدام... كان الكاهن يتمتع بشيء من الحصانة بسبب اهتمامه بتدريس الفرنسية لولدي رضا باشا، الحاكم العسكري. أدخله إلى البيت ووضع له فراشاً في غرفة جانبية وداواه حتى شفي. بعدها أمن له طريق الوصول إلى بيروت حيث تواصل مع أصدقاء له ساعدوه على تأمين جواز السفر وتذكرة الباخرة التي أقلته إلى هنا. والبقية أصبحت تعرفها.

- إنه لإرث ثقيل.

- كل تواريخ العوائل معقدة... أحياناً تصبح أتفه التفاصيل في العلاقات العائلية عبئاً. لكل امرئ أن يختار كيف يتعامل معها.

لا أعرف لِـمَ لـم أشعر بالامتنان تجاه الأستاذ يوسف، بل أحسست بشيء من الضغينة، كأنه يحمل مسؤولية بلبلة مشاعري وكتابة تاريخ جديد لي. حاولت أن أخفي تلك المشاعر وأن أودعه ببعض الحرارة. شد على يدي وعلى وجهه ابتسامة توحي بأنه يفهم كل هذا.

والآن ماذا؟ هل أركب سيارتي فوراُ وأعود أدراجي إلى عائلتي وحياتي وأنسى كل ما يتعلق بالروايتين، رواية يوحنا ورواية الأستاذ يوسف؟ وتلك الأوراق المسافرة التي أرسلتها بروك؟ أأتركها تصل إلى العنوان في الفندق وتبقى هناك منسية؟ تلك أوراق ثبوتية تحمل معلومات لم تعد تعني شيئاً بعد أن قالت الحكاية كلمتها.

أجلس على مقعدي في السيارة. الكتاب على المقعد إلى جانبي. أمسك به، أقلب صفحاته، أشعر برغبة في إعادة قراءته في ضوء معلوماتي الجديدة. أقود السيارة وأنا أقرأه في فكري، مع شخصياته التي تبدلت مواقعها. أجد نفسي في الشارع المؤدي إلى بيتنا. أترجل وأجلس على الدرج فوق الغبار. أضيء مصباح الجيب الذي حملته معي من السيارة، وأقرأ في ضوئه. أبدأ من النهاية، من الفصل الأخير الذي لم أقرأه بعد، من بعدها أعيد قراءة الفصول الأخرى، واحداً واحداً. الجو لطيف، بعض الأشجار التي زرعها والداي ما زالت هنا.

قادم من زمن المجاعة

ما زلت إلى اليوم أجهل طرق سريان السحر، لا أعرف الأساليب التي يمتهنها الحب ليجعل براعمه تتفتح في القلوب الغافلة عنه. أحاول جاهداً أن أتذكر كيف ولد الحب. أهي الجراح اللاحقة التي طمست آثار تلك الولادة في ذاكرتي؟ أم أنه نما في الخباء، وحين ظهر على الملأ، كان ناضجاً، مكتملاً؟

أدركت ذات يوم أنني أكنّ لسوسن مشاعر مختلفة عما شعرت به تجاهها حين رأيتها طفلة ضعيفة، فقررت أن أعتني بها. هل عاونني على تلك المعرفة الصمت الذي راح يسود بيننا حين كنت أزورهم، أو حين تأتي لزيارتنا في محل الأقمشة؟ أم وجنتاها اللتان كانتا تصطبغان بالحمرة، أم تلك الأثواب الأنثوية التي أخذت ترتديها؟ أم رائحة العطر التي تسبقها وتبقى بعدها، مغرقة أفكاري في خدر لذيذ؟ كل ما أعرفه هو أنني عزفت عن زيارة شارع المتنبي والأماكن المشابهة، ورحت أشعر بتوق إلى شيء آخر، أكبر، أعمق، وبشوق حارق إلى رؤية تلك الفتاة التي كانت تتحول تحت ناظريّ المذهولين إلى امرأة رائعة الجمال.

كانت في الثامنة عشرة من عمرها، تستعد لدخول الجامعة اليسوعية حيث اختارت أن تتخصص في الحقوق، وكان عمها يمازحها في شأن العرسان الذين كانوا يتقدمون لخطبتها. شعرت أنني لا أستطيع أن أحتمل فكرة زواجها من آخر.

«أنا لن أتزوج أبداً!» قالت لي عندما خرجنا ذات يوم قبل العشاء إلى الحديقة نتمشى قليلاً بانتظار عودة آرام وعمه. ابتسمت لهذه المقدمة

الطفولية، ولكنني أمسكت بطرف الخيط الذي رمته باتجاهي.

- حتى من الشخص الذي تحبينه؟

- وماذا لو لم يكن هو يريد ذلك؟

- هو حتماً يريد.

تسمرت في مكانها، ونظرت إليّ وفي عينيها الواسعتين أسئلة كثيرة.

- تعرفين أنني أحبك، أحبك منذ زمن طويل، قلت.

- وتعرف أنني أحبك، منذ الأزل، أجابت.

مسحت بيدي وجهها الناصع وتوقفت أصابعي فوق ذلك الوشم الصغير الذي نقشته على ذقنها أمها البدوية والذي ما زالت آثاره واضحة على الرغم من كل المساحيق التي كانت تستعين بها عليه.

عشت أشهراً موزعة بين السعادة والقلق. انتابني القلق مباشرة بعد عودتي من ذلك اللقاء الذي بحت فيه بمشاعري لسوسن. هل سيرضى بي السيد بوغوس الذي تحول إلى واحد من الشخصيات البيروتية الأكثر غنىً والأكثر تأثيراً في الحياة الاجتماعية والسياسية، زوجاً لابنة أخيه التي يحلم بها أبناء أكبر العوائل؟ وأنا مجرد موظف بسيط في محل الأقمشة الذي يملكه ابن أخيه؟ ثم كيف أصبحت مجرد موظف يتقاضى راتباً عادياً عن عمل يمقته؟ كيف هجرت أحلامي وانغمست في هذا العمل الذي كان من المفترض أن يكون مؤقتاً؟

ولكن كل تلك البلبلة كانت تتبخر عندما ألتقي بسوسن في حديقة بيتها، على مقعد حجري في ظل صنوبرة شابة ونتبادل الحديث بمرح أو نصمت صاغين إلى زقزقة عصفور كان يرافق مواعيدنا. وسوسن تحلم وتخطط: بيتنا سيكون في الجبل، في مكان مقفر، بعيد عن صخب الحياة البيروتية، مختبئاً بين الأشجار، وسيكون له حديقة نزرعها بكل أصناف الورود، سنزور بيت عمها كل يوم، ستنهي دراستها وتفتح مكتباً للمحاماة،

سنشتري شقة في الشارع المحاذي، سنسافر، سنزور دمشق، سنقيم في فرنسا، سننشئ جريدة... وتشتبك الأحلام وتتضارب، وأضحك لحماستها وأطرب لصوتها، ويسكرني لمعان الشرارات التي تنطلق من عينيها.

قررت أن أبدأ بمصارحة آرام، فيعينني على إقناع السيد بوغوس. كان قد أصبح دائم الغياب، وقد عهد بإدارة المحل إلي بشكل كامل، وهو يعمل بتجارة الجملة والاستيراد والتصدير. اتصلت به واتفقت معه على موعد على العشاء في مطعم الستراند القريب من الشقة التي استأجرتها في الحمرا. وصل بسيارته الفخمة التي ركنها إلى جانب المدخل ودخل ووقف قليلاً في العتمة الخفيفة من دون أن يراني. وجدته قد هزل كثيراً، كأنه مصاب بمرض ما. لوحت له بيدي، فأسرع نحوي وسلم عليّ بحرارة.

- كيف حالك صديقي؟ أمن المعقول أن يمر شهر كامل من دون أن نلتقي؟

- تعرف أنني كنت مسافراً، وبعد عودتي كانت هناك أمور عالقة عليّ أن أحلها...

- أعرف. لكن ما من داع لأن تنسى أصدقاءك.

- لا أنساك أبداً، والدليل على ذلك أنني أحضرت لك هدية صغيرة من ايطاليا.

كان دائماً يحضر الهدايا من أسفاره، لي ولكل فرد من أفراد عائلة عمه. هذه المرة كان قميصاً رمادياً جميلاً.

تحدثنا قليلاً في شؤون العمل بينما كنا نتناول الطعام، وكان يبدو مشغولاً بفكرة ما، حزيناً ربما. لم أسأله، إذ هكذا كانت الأمور تتم بيننا: ينتظر واحدنا حتى يرغب الآخر في الإفصاح عن مكنونات صدره. حين انتهينا وجاء النادل بالقهوة، أحسست أن الوقت قد حان لأطلعه على سري، ولكنه، بينما كنت أجهز العبارة الأولى، بادرني بالقول:

- إسمع يوحنا، عليّ أن أخبرك أمراً في غاية الصعوبة...

خفق قلبي في صدري. لم يكن تضخيم الأمور من عادات آرام. كان على العكس يميل إلى التقليل من شأن الصعوبات التي نمر بها، إلى حد أنني كنت أنزعج منه أحيانا، لأن تلك المواقف كانت تدل على عدم المبالاة.

- عساه خيراً.

انتظرته قليلاً ولكنه بقي صامتاً، كأنه لا يعرف من أين يبدأ. حاولت مساعدته بسؤال، أي سؤال:

- أهي مشاكل مادية؟

- يا ليتها كذلك. أدفع كل ما أملكه في سبيل استعادة راحة بالي.

- الأمر بهذه الخطورة؟

- أكثر مما يمكن أن تتخيله. ما يحصل قلب حياتي جحيماً ودمر كل ما بنيته.

- قل لي أرجوك.

- أنا أحب سوسن.

- أعرف ذلك...

- ليس كشقيقة.

- ما الذي تعنيه؟

- أعني أكن لها مشاعر لا تسمح بها صفة الشقيق التي انتحلتها.

ماذا أقول؟ بم أجيب؟ كان العالم ينهار من حولي، وقرقعة حجارته تصم أذنيّ. وآرام يتكلم، أراه يحرك شفتيه ولا أسمع كلمة واحدة. كيف وجد الله هذا العقاب؟ لي وله.

حاولت أن أنفض عني الغبار الذي طمرني وأن أعود إلى المطعم، إلى الطاولة، إلى حديثي مع آرام...

«سأرحل!» سمعت هذه الكلمة كصفعة أيقظتني.

- ترحل؟ كيف؟ إلى أين؟

- إلى أميركا. سأفتح محلاً في نيويورك.

- وعائلتك؟ وأنا؟ سألت كولد تائه.

- ليس لدي حل آخر. لا يمكن أن أبقى. ما يقتلني ليس فقط ما أشعر به تجاه سوسن، بل اختلاط المشاعر التي تجعلني أدور في دوامة، أدور حتى أصاب بنوع من الشلل الفكري، من إغماء تبقى فيه عيناي مفتحتان، ولكن عضلات جسمي متراخية وعقلي عاجز عن العمل. لم أعد حتى قادراً على التواصل مع عمي أو زوجته أو ابنه. لا حل لديّ. أعتذر منك يوحنا. أسافر أو أصاب بالجنون. بالنسبة إليك، تبقى الأمور على حالها.

- لا أستطيع! هتفت كغريق.

- لماذا؟

كان الهواء شحيحاً من حولي، والركام يكبلني. كيف أقول له ما جئت لأقوله؟ لا استطيع.

لم أقل له شيئاً يومها، ولا في اليوم التالي حين جاء السيد بوغوس إلى المحل والتقى بآرام بحضوري محاولاً ثنيه عن عزمه. كان آرام يدّعي أنها ستكون سفرة قصيرة، بضعة أشهر، سنة، تجربة جديدة يخوضها، مغامرة... والسيد بوغوس يسعى إلى إقحامي في الحديث لكي أساعده في إقناع آرام، فيثير صمتي حنقه. لم أقل شيئاً حين ودعني آرام بعد أسبوع.

بدا لي أنني دخلت سجن الصمت ولن اخرج منه ثانية. بقيت صامتاً حين التقيت بسوسن، ولم أنجح في أن أجد كلاماً يمسح الحزن عن عينيها الدامعتين.

كيف أتواصل مع العالم الخارجي وفي داخلي تجري معركة دامية بين حب ينمو على أنقاض آخر والوفاء لصديق كل خطيئته كانت في بحثه عن

عائلة، بين الحب وكذبة لا يمكن أن تستمر بعد، بين رغبة في تناسي الماضي وبناء شيء ما فوق ركامه وتوق إلى إزالة كل ذلك الركام والبناء في مكان آخر؟ ...

والصور تشارك في المعركة، صور من الماضي تمر مسرعة في ذهني: صور سوسن في الحديقة، في المحل، في الحفلات... وصور لأرام، آرام يمد يده ويساعدني على الوقوف في الليلة الأولى في الميتم، آرام يدافع عني في وجه الأولاد الذين كانوا يسخرون مني، آرام يختبئ ليرافقني وخالي في رحلتنا إلى دمشق، في محطة القطار في المعلقة ينتظرني تحت وطأة الشمس طوال أربع ساعات، آرام يسهر عليّ بعد إصابتي في معركة ميسلون، يطعمني، يقدم لي الدواء...

لا يمكن لي أن أبني سعادة زوجية بمعزل عن كل تلك الصور. لا يمكن أن أصبح البديل عن آرام لدى عائلته، أن أتزوج من يحب، أن أعمل في محله...

واليوم أعترف بما لم أعترف لنفسي به يومها، أنني أيضاً، كنت أضيق بفكرة البقاء في هذا العمل الذي علقت به، في تلك الأجواء التي لا تشبهني، بين أناس لا أشاركهم همومهم ولا يشاركونني تطلعاتي. سوسن واحدة منهم، جزء من هذا العالم الذي وجدت نفسي معلقاً به، كمن تسلق درجات قطار، هرباً من مطارديه، وسجن نفسه بداخله... يومها بقيت تلك الفكرة مخفية تحت مشاعري المختلطة.

جاءتني خشبة الخلاص مرة أخرى من المرأة التي طالما أنقذتني، أو بالأحرى من شقيقتها، الآنسة إلين التي أرسلت لي رسالة تخبرني فيها عن مرض الآنسة ماري. قلت لسوسن إن عليّ أن أذهب لزيارتها، فنظرت إليّ بعينيها الواسعتين ولم تجب. سلمت أوراق المحل ودفاتر الحسابات للسيد بوغوس واستقليت القطار إلى دمشق. كانت أشواك تشبه تلك التي سكنت كوابيس طفولتي تمزق صدري، والدنيا من حولي صحراء قاحلة. حقيبتي الوحيدة إلى جانبي لم تتسع للكثير، تركت جزءاً كبيراً من حياتي ورائي، كما في كل مرة، كما عند كل وداع. قلت لهم إنني سأعود ولكنني كنت أعرف

أنني لن أفعل، وربما عرفت سوسن أيضاً، من البرود الذي قابلت به اندفاعها، من عينيّ اللتين كانتا تهربان من عينيها.

في دمشق، عالجت مرضي بالسهر على شفاء الآنسة ماري من مرضها. كانت نزلة صدرية غير خطيرة، ولكن، ما كان يقلق شقيقتها أكثر من مرضها الجسدي، حال الإحباط والتعب النفسي، التي كانت تمر بها، ورغبتها في الابتعاد عن الجميع. شيئاً فشيئاً، استعدنا عافيتنا معاً. سكنت في فندق قريب من منزلها، وأمضيت كل ساعات النهار برفقتها. قرأت لها، أخبرتني عن قراءاتها، عن مقالاتها، استمعنا إلى الموسيقى، عزفت على البيانو للمرة الأولى بعد انقطاعها عنه لوقت طويل، حتى أنها غنت لي بصوتها الرخيم الذي انتشلني من وحدتي وحزني. لم أستطع أن أبوح لها بسري. لم يكن يحق لي أن أفشي به لأحد. اليوم أجرؤ على كتابته لأن أبطاله رحلوا عن هذه الدنيا، ومن بقي منهم غيرت اسمه وصفاته كي لا تشير إليه الحكاية بوضوح.

شفيت الآنسة ماري من النزلة الصدرية، وعادت إلى مزاولة نشاطاتها بحيويتها المعهودة: تدريس وتحرير مجلات في دمشق والقاهرة وبغداد، ومنتديات أدبية... ولكن حالات الكآبة كانت تعود لتزورها بين وقت وآخر وتكبلها لأسابيع، ثم تغيب... حتى استوطنت حياتها بشكل تام في السنوات الأخيرة من حياتها، فانقطعت عن رؤية الجميع. يومها، لم أكن هناك لأجالسها، محاولاً طرد الغيوم القاتمة. حتى لو كنت موجوداً، ما كنت سأفلح في تلك المهمة، كانت قد أوصدت قلبها الكبير في وجه ظلمات العالم كما أنواره، وكان فكرها قد رزح تحت عبء صخور كثيرة أمضت عمرها وهي تحاول أن ترفعها، فتعود وتتدحرج.

ولكنني كنت هناك حين لفظت أنفاسها الأخيرة ورافقتها مع عدد قليل من الأصدقاء إلى مثواها الأخير.

ولكن كان أمامها سنين طويلة من الإنتاج الفكري والأدبي ومن العطاء... أرشدتني مجدداً إلى طريق الخلاص، حين طلبت مني أن أعود إلى الكتابة، وأرسلت مقالاتي إلى صحف ومجلات في دمشق وبيروت، وتمكنت

أن تجد لي وظيفة في التدريس في مدرسة الإخوان الفرنسيسكان، وساعدتني على الاستقرار من دون أن تطرح الأسئلة حول حياتي السابقة، حتى حين طلبت منها أن تتوقف عن تسليمي الرسائل التي كانت تصلني من سوسن. لم تسأل، وسوسن، بعد أشهر، توقفت عن الكتابة... ظننت أنها تخطت ذلك الحب.

انخرطتُ مجدداً في أجواء العمل النضالي المحمومة، إذ كان كثيرون يبحثون عن السبل التي يمكن أن تؤدي إلى الاستقلال. وكان علينا مجدداً أن نواجه السموم التي تجتاح جسد مجتمعنا من جراء سياسات الانتداب الذكية وتوافق مصالح البعض مع تلك السياسات. نواجههم بالكلمة، بانتظار أن يعود زمن الفعل.

ظننت أنني طويت صفحة الحزن.

حتى جاء اتصال السيد بوغوس.

اتصل بالآنسة ماري ليطلب منها أن تبلغني أن سوسن قد توفيت وأن دفنها في الغد.

سوسن انتحرت، وضعت حداً لحياتها بتناول علبة من المهدئات. رحلت من دون أن تخبر أحداً عن سر حزنها. مشيت في جنازتها، وراء الآخرين، في نهاية الصف، حيث يسير من ليس هنا إلا لقضاء واجب اجتماعي. كان عددهم كبيراً. لم يعرفوا سبب موتها الحقيقي لأن السيد بوغوس دفع مبالغ طائلة للطبيب الذي عاينها وللكاهن ولآخرين كتموا سرها... انتقمت من غيابي وصمتي ومن تلك الرسالة التي كتبت فيها أنني أدركت أن ما أكنه لها لم يكن حباً، انتقاماً مجلياً، زرع في قلبي جرحاً جديداً، لن يندمل تماماً، حتى آخر عمري.

لازمني الألم حتى اعتدت وجوده، مثل مرض مزمن، مثل حكم بسجن ارتضيته عقاباً لذنوبي. أحببت سوسن بعد موتها كما لم أحبها في حقبة العشق القصيرة، علقت صورتها فوق سريري، وكتبت لها الكثير من القصائد. أودعت حزني في كلمات القصائد الأولى، وفي القصائد التالية،

سعيت لكي أحبس صورتها التي أخذت تتلاشى، صوتها ضحكتها. مضت الأيام ساخرة من قصائدي ومقاصدي، وراحت ذكرياتي عن سوسن تصبح مجرد ذكريات عن الذكرى... وقصائد، ودوواوين لايقرأها الكثيرون.

بينما كان عدد القراء الذين يتابعون مقالاتي في صحف مختلفة يزداد يوماً بعد يوم... وشيئاً فشيئاً، ارتسم طريق مستقبلي في العمل الصحافي، فسلكته، وتركت العمل في التدريس. لم تختف سوسن تماماً من حياتي. كانت تعود مثل طعنة في الصدر حين أسمع اسمها ينادي به أحدهم امرأة أخرى، حين أرى صورتها معلقة على حائط غرفة الاستقبال في منزل السيد بوغوس في أثناء زياراتي القليلة، فأحاول أن أشيح بمشاعري، كما كنت أشيح بنظري عن الصورة. لم أنجح دائماً. ذات ليلة، في إحدى السهرات في بيروت، قابلت كاترين إبنة خالتها التي كانت مقربة منها إلى حد ما. في نهاية السهرة، عندما اقتربت منها مودعاً، ابتسمت ابتسامة رقيقة ونظرت إليّ وقالت: «كانت تحبك كثيراً.» ومضيت ومضت، واستفاق الماضي بصوره وبعبارات بقيت معلقة على أطرافه. ولم أستطع أن اجد طريقي إلى النوم لأشهر طويلة.

** * *

أربع سنوات مرت كأنها عمر آخر...

شاءت الحياة أن تكفر عن بعض الخطايا التي ارتكبتها بحقي، فوضعت في طريقي أشخاصاً أناروا بعض ظلمته. منهم المرأة التي ستكون ملاذي ونهاية مطافي.

كنت قد عدت إلى بيروت لأتسلم وظيفة في جريدة النهار، وكان آرام قد عاد ليستقر في لبنان، بعد وفاة السيد بوغوس. فعاون ابن عمه قليلاً على إدارة أعمال أبيه، وأنشأ لنفسه مصنعاً حديثاً للخياطة. كنا ما زلنا شابين، ولكننا كنا نحمل فوق كتفينا أعباء أجيال عديدة. آرام انغمس في العمل الذي كان يمنحه شعوراً بالإمساك بزمام الامور وبالسيطرة على تقلبات الزمن، وأنا أنقذتني امرأة.

حين رأيتها، كانت شمس بيروت تميل إلى الغروب، وكان النور داخل المصنع شحيحاً. دخلت خلف آرام، ورحنا ندور في أنحاء المصنع الصغير وآرام يشرح لي عن آلات الخياطة الجديدة ويتحدث إلى العاملات اللواتي كن يجبنه بخفر. كانت جالسة في الزاوية وراء ماكينة الخياطة، في ظل لم يسمح لي بتبيان ملامحها بدقة، ولكن شيئاً ما اختلج بداخلي حين رفعت وجهها صوبنا. ألقى عليها آرام السلام وسألها عن إمكانية الإسراع في إنهاء العمل على القمصان لتسليمها بعد يومين.

«سأبذل جهدي»، أجابت مبتسمة.

«نسيت أصول الآداب، استدرك آرام: لم أعرفكما ببعضكما: زينة الرواش ...»

«زينة!»

نظرت إليّ باستغراب، كذلك فعل آرام الذي قاطعته فلم يكمل التعريف. أكملته عنه:

«أنا يوحنا جاركم، يوحنا بطرس.»

«يوحنا الصغير!»

«لم أعد صغيراً جداً.» تصافحنا بحرارة بينما وقف آرام ينظر إلينا بسرور. كانت جديلتها لا تزال كما في ذاكرتي، شقراء ولامعة وعيناها الزرقاوان تتلألآن بضحكة صافية كالماء الذي كان ينساب من العين في قريتنا.

- منذ متى تعملين هنا؟

- منذ ستة أشهر. قبلها، كنت أخيط الثياب في المنزل.

أين تقيمين؟ هل تزوجت؟

- كلا لم أتزوج. أعيش أنا وأخي في بيروت، منذ سنتين. انتقلنا بعد أن وجد عملاً جيداً في أحد المطاعم بالقرب من هنا. إنه طاه ماهر.

لم أترك لها مجالاً لتسألني بدورها. أمطرتها بسيل من الأسئلة، عن السنين التي مضت، عن عائلتها، عن القرية التي أخذت فجأة تسترد وجهها الأليف. أحسست برغبة في زيارتها، بينما كنت أظن أن قدميّ لن تطآ أرضها ثانية، خوفاً من استرجاع الذكريات الأليمة التي تحملها لي. ناداني آرام لينبهني إلى أن وقت الإقفال قد حان، ومعه موعد مغادرة الموظفين، فشعرت بشيء من الضيق. كنت أحتاج وقتاً أطول مع زينة. وعدتها بالعودة في الغد، فابتسمت بسرور.

بعد مغادرة زينة، أحسست برغبة في الاحتفاظ بمشاعر الفرح التي انسابت في روحي، فرحت أكلم آرام عنها، عن صبرها بعد موت والديها، عن العمل الشاق الذي كانت تقوم به في منزل عمها، عن تعبئة الجرة من العين عدة مرات في اليوم، عن رحيلها إلى البقاع وهي تحمل شقيقها على ظهرها. شككت أن آرام لم يكن مهتماً كثيراً في ما كنت أرويه، ولكنني لم أستطع التوقف. كانت حقبة كاملة من حياتي تعود لتجتاح ذاكرتي، ولكنها أطلت من نافذة جميلة كنت قد نسيتها في غمرة المآسي: وجه الفتاة الشقراء التي كانت أول حب طفوليّ في حياتي.

وجهها رافقني في كل لحظة من تلك الليلة، وانتظرت الصباح وأنا أعد الساعات لكي ألقاها مجدداً. ولكنني، عندما أفقت من النوم، قررت أن أتأخر قليلاً عن موعد بدء الدوام لكي لا أبدو بمظهر المعتوه إن أصغيت لرغبتي وسبقت زينة إلى المصنع.

عندما قاربت الساعة التاسعة، وقفت عند باب المصنع أراقبها قبل أن أدخل. كانت ترتدي الثياب نفسها، وهذا ما جعلني أشعر بشيء من الخيبة. لم تخطر في بالها فكرة أن تهتم بأناقتها من أجلي، بينما أمضيت ساعة أتردد في اختيار ملابسي واستعرت عطراً ثميناً من آرام، ونظرت طويلاً إلى المرآة لأتأكد من حسن مظهري. استقبلتني بنظرتها الضاحكة التي لا تحتاج إلى أكثر من ابتسامة صغيرة حتى تضيء وجهها. لم تدعني للجلوس، إذ

كانت قطع القماش المتراكمة أمامها تشير إلى انشغالها. ولكنني قربت كرسياً وجلست عليه. ابتسمت وراحت تكلمني بينما استمرت في غرز إبرتها الرقيقة في ياقة القميص الذي كانت تمسك به. سألتها عن القرية، وإن كانت تزورها، فأجابتني أنها تفعل، إذ أنها كانت تمضي العطل هناك في البيت الذي ورثته هي وشقيقها عن أهلها ورمماه بما سمحت ظروفهما المادية حتى أصبح قابلاً للسكن. خلال حديثنا، لاحظت أن زينة كانت تسترق النظر باتجاه العاملات الأخريات، فاستنتجت أنها تخشى الأقاويل أو أنها لا تريد أن يظنّ أنها تتلهى عن العمل في أثناء الدوام، فنهضت، وطلبت منها الإذن بزيارتهم في المساء حتى أرى شقيقها وأسلم عليه. أعطتني العنوان بالتفصيل وقالت إنهما سيكونان بانتظاري. ربما قالتها بشيء من السرعة. هل شعرت بالارتياح لمغادرتي؟

كان عليّ أن أشغل نفسي بأي أمر بانتظار حلول المساء، فقررت أن أقوم بما جئت من أجله. زرت «النهار» وتعرفت إلى جبران التويني الذي قال لي إنه قرأ مقالاتي في «البرق» وفي «فتاة الوطن» وانه مسرور بالعمل معي. هكذا بدأت رحلتي مع تلك الجريدة التي عشت في كنفها، بين من أصبحوا أصدقائي وأهلي. أعترف أنني لم أسمع جيداً ما قاله لي جبران التويني ولا مدير التحرير. كانت عباراتهما تصلني متقطعة، منفصلة عن مسارها، مخترقة الضباب الذي يلفني، فلا أجرؤ كثيراً على التقاطها والإجابة عنها، لعلني تهت عن معناها الحقيقي. أهز رأسي بالموافقة متمنياً أن لا يكون هناك أمر مما يطرح لا يناسبني. كان عقلي وكل حواسي منشغلين باللقاءات الثلاثة، اللقائين اللذين حصلا وذلك الذي سيحصل.

في أي وقت خلال اللقاء الثالث عرفت أنني وقعت في حبها؟ هل حصل ذلك حين فتحت لي الباب وأدركت أن ذاكرتي قصرت عن حفظ تفاصيل جمالها؟ عندما استرقت النظر إلى قوامها الجميل في ذلك الفستان الأزرق البديع ببساطته؟ أم عندما تحدثنا واكتشفت عمق ثقافتها وشغفها بالقراءة؟ أم عندما قدمت لي شراب التوت الذي أعادني بنكهته إلى أيام القرية الهانئة، تلك التي سبقت المجاعة؟ أم أسرتني رنة صوتها الخلابة حين

روت لي رحلتها من الخنشارة إلى أبلح برفقة عائلة عمها، وهي تحمل رئيف على ظهرها؟ أم كانت تلك الثقة والقوة الهادئة التي تفوح من صوتها، حركاتها، كلماتها. قررت أنها المرأة التي أحب، وغمرتني سعادة من لم يبدأ بعد بطرح الأسئلة المقلقة. تألقتُ في تلك السهرة. أدرت حديثاً متنوعاً بين الأدب والثقافة والسياسة، وخضت حتى في شؤون الطبخ لأنال رضى شقيقها...

لم أطرح الأسئلة على نفسي، لم أدع الشك يتسرب إلى قلبي. أردت أن أعيش سعادة البدايات من دون خشية. وضعت خطة ممنهجة لمحاصرة زينة حتى أصبح جزءاً مهماً من حياتها، وقررت عدم التسرع في الكشف عن مشاعري. أدركت منذ البداية أن الأمر لن يكون سهلاً وأن زينة لن تتخطى بسهولة فارق السن بيننا. كانت تكبرني بخمس سنوات، وكنت ما أزال في نظرها ذلك الفتى الصغير الذي يتشيطن في أحياء القرية، ويجلس بقربها عند العين، مقلاعه في يده.

طلبت منها أن تساعدني في شراء أثاث للشقة الصغيرة التي استأجرتها، فكانت هذه فرصة لنمضي أوقاتاً طويلة معاً في البحث عما يناسب ميزانيتي وذوقي، أو بالأحرى ذوقها هي، إذ تظاهرتُ بالإعجاب بكل ما كانت تختاره. في الحقيقة، لم يكن موضوع الأثاث يعنيني كثيراً، ولو كنت وحدي، كنت اكتفيت بسرير وطاولة وكرسيين... لكن زينة كانت تبدو فرحة وهي تنتقل بين المحال وتتردد وتسألني إن كانت تلك المكتبة كافية لتضم كل كتبي وإن كان لون الكنبة مناسباً. وأنا أزيد، وأتذكر أننا لم نشتر بعد لوحة للمدخل، أو مصباحاً لغرفة النوم، فيعطيني ذلك فرصة جديدة لتمضية وقت جميل برفقتها.

أدركت أن واحدة من نقاط قوتي تكمن في قدرتي على إضحاكها، فإذا بي أتحول شخصاً مرحاً يتمتع بسرعة البديهة وبقدرة على استخراج الفكاهة من أي موقف يعترضه، بعد أن كنت أعاني فيما قبل زينة من الإفراط في الجدية. كانت النكات تنساب من فمي بشكل تلقائي وكانت ضحكتها الصافية أجمل مكافأة لجهودي. ولكن الوقت مضى واستمرت في معاملتي بصفتي

صديقاً عزيزاً، أو ربما أكثر... بصفتي أخاً صغيراً وجدته بعد فراق، فسدّ بعض الفراغ الذي كانت تعيشه مع رئيف، خصوصاً منذ أن انتقلا للسكن في بيروت وتباعدت زياراتهما للعائلة في أبلح. ولكنني خفت أن تعتاد كثيراً على هذا الشعور فيصعب عليّ تغييره فيما بعد، ورحت أفكر بطريقة لأبوح لها بحبي. كنت أعرف تماماً أن ذلك لن يكون نهاية المطاف، إنما بداية لمعركة طويلة وشاقة. لهذا، عبرت إلى المرحلة الثانية مرغماً، فقد كان هذا العبور يعني انتهاء تلك الأشهر الجميلة من اللقاءات اليومية والضحك والمرح إلى مرحلة الحرب المركزة التي عليّ أن أخوضها لأحظى بها.

ومع كل ذلك شعرت بالارتياح حين تكلمت. كان حبي قد أصبح أقوى من أن تحتجزه بعض الأحاديث المرحة والكلمات العادية. شعوري لم يدم إلا ثوان قليلة، إذ حصل ما كنت أتوقعه من دون أن أكون محضراً للألم الذي نتج من جراء ذلك.

قالت: «غير ممكن.» فقط. ونهضت مغادرة المقهى حيث كنا نتناول العصير. لحقت بها أرجوها وأفند حججي، وهي تسير مسرعة ولا تجيب. هكذا سيكون المشهد التكراري طوال أشهر. ألحق بها ولا أتعب وهي تتجنبني وتصمت، أو تجيب: «غير واقعي... غير ممكن... غير مقبول.»

ما ساعدني في تلك الحقبة هو جهل رئيف لكل ما حصل، وهذا ما أجبر زينة على الاستمرار في استقبالي في شقتهما، وعلى تلبية دعواتي إلى العشاء عندما يكون برفقتنا. شننت حملة مركزة، وقفت أنتظرها كل صباح قرب المصنع لأحييها قبل أن تدخل، وكنت، حين أستطيع، أخرج من الجريدة لأنتظرها قرب الباب في وقت الإقفال. كتبت لها الرسائل التي دسستها تحت الاريكة في شقتهم أو في درج في الخزانة الصغيرة قرب المدخل عندما أتأكد أنها كانت تراني فيما ينظر رئيف باتجاه آخر، رسائل تختلط فيها الحجج التي تثبت أن فارق السن قد يكون ضمانة نجاح للعلاقة الزوجية، بمحاولات يائسة لاستدرار حبها، أو حتى، في المرحلة الأولى، شفقتها. كنت أحياناً، حين يطوف العشق ويغرقني، أكتفي بكتابة كلمتين لا غير: «أنت روحي.» أود لو أكتبهما، كالمراهقين على المفارق، على كل الحيطان، كل

الأبواب. قبل زينة، لم أكن يوماً مراهقاً. ابتعت هدايا وضعتها عند عتبة شقتها لتجدها حين تخرج في الصباح فيما لا يزال رئيف نائماً، هدايا ترجعها مع صبيّ في اليوم التالي، فأخبئها لأقدمها لها مجدداً حين تصطلح الأمور بيننا. قلت لها إن حبي لها سيستمر، سواء بادلتني الشعور أو لم تفعل، وإنني مستمر في المحاولة حتى آخر رمق في حياتي.

خلال تلك الأشهر كانت تجتاحني أحياناً نوبات من التعب، وأتساءل إن كنت سأنجح يوماً في إقناعها، ونوبات أخرى من الغيرة حين ألمح رجلاً يكلمها في المصنع، أو حين ألتقط نظرة إعجاب من أحد المارة أو من الرواد في المقهى حيث نكون برفقة شقيقها. وأشتعل حين يخبرني رئيف عن «عريس» تدبره لها إحدى القريبات ويشكو إليّ عنادها، ويضيف: «لقد ضحت بكل شيء من أجلي. عليها الآن أن تفكر بنفسها. آن لها أن تستقر مع رجل يستحقها.» وأكاد أصرخ أنني أنا من يستحقها، وأكاد أوسع رئيف ضرباً لأنه لا يشكّ بشيء، لأن سني يسمح له بالنظر إلي كصديق مطلق للعائلة، صديق يمكن إطلاعه على كل تلك التفاصيل لانعدام إمكانية تحوله إلى موقع آخر. أما هي، فتضحك مرددة أن «العريس» الذي يختارونه لها في هذه السن إما يكون عجوزاً أو مصاباً بإعاقة ما، غالباً عقلية.

نسقنا إمكانية الحصول على يوم عطلة لنا نحن الثلاثة، لنزور الخنشارة. قررنا أن ننطلق باكراً وأن نلتقي عند محطة الحافلات في ساحة البرج. كنت أخشى هذه الزيارة قليلاً وأتساءل إن كان من المجدي إعادة تقليب تلك الصفحات، بينما لا يكاد ذهني يقدر على احتواء كل المستجدات في حياتي الخاصة وفي أوضاع البلد...

وصلت قبل رئيف وزينة، وصعدت إلى الحافلة حيث دفعت لمعاون السائق وحجزت لنا ثلاثة مقاعد، وجلست أنتظرهما. ربما غفوت قليلاً، وعندما فتحت عيني وجدت ضحكة عينيها أمام وجهي، ورأيت القلادة... ورقة شجرة من الذهب مزينة بحبوب من الفيروز... تلك التي وضعتها في درج خزانة المدخل في بيتها قبل يومين، وانتظرت أن تعيدها إليّ مثلما فعلت بسابقاتها، وتأخرت، فظننت أنها لم تجد من يحملها إليّ،. لم أشك أبداً أنه

سيكون اليوم الذي سينهي معاناتي. مهما حاولت أن تتوقع، تأتيك دائماً لحظات السعادة في الوقت الذي لا تكون فيه مستعداً لها. القلادة على صدرها! اغرورقت عيناي بالدموع، فأتاني صوت رئيف من العالم الآخر يسألني ضاحكاً: «شو بيك؟ الهيأة بعدك عم تحلم.» لم يعلم مدى دقة كلماته.

كانت بلا ريب أجمل رحلة قمت بها في حياتي. بدا كل شيء رائعاً، حتى الضجيج في الحافلة والحر. عشقت كل شجرة شاهدتها في الطريق، كل وردة مزروعة أمام بيت، كل زهرة برّية. أحببت البيوت المرممة، وتلك التي ما زالت تحمل حزن فراق أهلها، فتحضن الغبار مع العشب الذي نما فوق سطوحها وفي تشققات حيطانها وتنتظر. كان الهواء يزداد انتعاشاً كلما صعدت بنا الحافلة، وكانت نظراتنا أنا وزينة تتجرأ على أن تتقارب، تتقاطع، تمكث قليلاً وتبتعد.

أما الخنشارة، فكانت جنة أراها كما لو كانت المرة الأولى التي تطأ فيها قدماي طرقاتها النظيفة، أحياءها الهادئة، أقف عند منعطف أراقب منها المشهد الممتد أمامي: الدير القديم الذي شهد ولادة أول مطبعة بالحرف العربي في لبنان، سطوح من القرميد الأحمر العتيق، تلال خضراء، صخور فضية متألقة، أشجار يانعة وأخرى كبيرة قد أكون تفيأت بظلها في طفولتي. وروائح الصنوبر والتراب تأخذ بالنفس إلى عالم يتجدد عند كل شهيق.

وزينة إلى جانبي تداعب النسمة شعرها فيفوح عطر يشبه عطر تلك النبتة الخضراء التي كانت تقطف منها ورقة عند العين وتشمها طويلاً. لا نسمع شروحات رئيف عن من اشترى ومن باع ومن بقي في المغترب... نستمع فقط لأنغام العشق.

سألتها عن بيتنا الواقع في طرف القرية، فقالت إن أحداً لم يرممه، فخليل بك الذي رهنه والدي لديه قبل رحيله توفي وأولاده يسكنون في بيروت، ولا يزورون القرية أبداً. فاتخذت في تلك اللحظة قرارين: لن أرى البيت هذه المرة لكي يبقى لزيارتي الأولى للقرية، طعم الولادة، بعيداً عن كل ما يذكر بالموت، كما قررت أن أشتري البيت من ورثة خليل بك.

أمي هناك، تنتظرني بعد أن عبَرْتُ الصحراء، لتنبت أشواقي في ظلها.

في الحديقة أمام منزل زينة ورئيف، قالت لي زينة تلك العبارة التي ستكون مفتاح مستقبلي: «لقد نجحت في أن تجعلني أحبك.»

بهذه العبارة أريد أن أنهي قصتي. أعرف أنها ليست النهاية الحقيقية، أن أحداثاً كثيرة طرأت وستطرأ، حتى تكاد تمحو كل ما سبقها، وتضع طبقة جديدة من الغبار فوق غبار الأحداث الماضية، أعرف أيضاً أنها ليست طريقة جيدة فنيّاً لختم رواية، فالخاتمة الجيدة، المحكمة، لا تكون إلا بموت الأبطال، ولكنني لا أستطيع أن أسمح للموت الذي تحكم ببداية القصة أن يسيطر على خاتمتها.

في وطني نحيا رغم أنف من يختارون لنا، كل حقبة بعد أخرى، أساليب جديدة للموت، نكتب أو نغني أو نصاب بالجنون حتى لا نموت.

شكر خاص للكاتب ميشال جحا الذي استعنت بكتابه
«ماري عجمي» الصادر عن دار الريس، عام 2001.